الختان

ضلالة إسرائيلية مؤذية

بقلم

چوزيف لويس

المفكر الأمريكى الحرّ

نقله إلى العربية

عصام الدين حفنى ناصف

وقدّم له ببحث فى الختان عند الأمم الإسلامية

وأنه أثر من آثار الإسرائيليات فى الإسلام

الاتحاد الاشتراكى العربى

دار ومطابع الشعب

الختان

ضلالة إسرائيلية مؤذية

بقلم

چوزيف لويس

المفكر الأمريكى الحرّ

نقله إلى العربية

عصام الدين حفنى ناصف

وقدّم له ببحث فى الختان عند الأمم الإسلامية

وأنه أثر من آثار الإسرائيليات فى الإسلام

الاتحاد الاشتراكى العربى

دار ومطابع الشعب

الإهداء

إلى النفس الآبية

التى تربأ أن تكون صنيعة للمضلّلين يتّخذون منها صنما لضحايا التضليل .

إلى الفكر الحر

الذى أوتِىَ من سَعة الأُفُق وعمق المشاعر الإنسانيّة ما يحفِزه إلى التمرُّد على الأَباطيل .

إلى اليد القوية

التى تواتيها الشجاعة فتُبطل ممارسة الختان ببلادنا رحمةً بالطفولة المعذّبة بهذا التقليد الأَخرق الذى يشوّه كل سنة أجساد رُبع مليون صبىّ تشويهاً لايمحى أثره مدى الحياة .

أهدى هذا الكتاب

تصدير

كلمة في حرّية الفِكر

يؤمن أحرارُ الفكر بحرّيّة التفكير والتعبير، ويدعون إليها في مثابرة وجَلد، ويدفعون عنها في غَيرة وحميّة. وهم يذودون عن حرّيتهم وحرية من يخالفونهم في الرأى، فلكل امرئٍ أن يفكر كيف شاء في استقامة وإخلاص، وأن يُبينَ عن آرائه في صراحة ووضوح، خطأً كانت تلك الآراءُ أو صوابا. أجل، إن من الآراء ما هو حصيف وما هو سخيف، ولكن أسخف الآراء أقلّ سُخفاً من مكافحتها بتكميم الأفواه وانتضاء سيف القانون.

ليس لذوى السلطان أن يكفّوا مُوطِنيهم عن إمعان الفكر وإنعام النظر فى موضوع ما ، ولا وجهَ لتجشيم المحكومين عنَتا حين ينادُون بالرأى المخالف لرأى الحاكمين ، وكذلك ليس للكثرة من الناس أن يفرضوا وِجهة نظرهم على القِلّة منهم ، فلكل امرئ من الحقّ فى معالنة سواد الناس بآرائه مثلُ ما لهم من حق فى إعلانه بما يَرَون ، وبغير ذلك يوشك اجتماع الناس على رأى أن يكون دليلا على سَقَم هذا الرأى ومجانبته السّداد .

لكل امرئ أن يبحث فيما يشاء من الحقائق ، فإن البحث فيها حقٌّ شائع ، بل هو فوق ذلك فرض على القادرين عليه الميسّرين له . وإن الذين يسلُبون الناس هذا الحقّ ويحولون بينهم

وبين النهوض بهذا الفرض هم لصوصٌ جبناءُ لايجرُءُون على مواجهة النتائج التى ينتهى إليها الباحثون ، هم همَج متبربرون يكرهون تقدّم البشر وسعادة الإنسان ، هم أنانيّون تَفِهون ، هم نخّاسون لايطيب لهم أن يَرَوا بين أيديهم غيرَ صفوف من العبيد منكبّين على وجوههم ساجدين .

لقد عرقل هؤلاء وأمثالُهم ، أنّى وُجدوا وأيّان عاشوا ، ما صادفهم من تقدم الشعوب فى مدارج النجاح ، فما من خُطوة خطتها الشعوب إلى الأمام إلا كان ذلك على الرغم منهم ، وما من كتاب طلع على الناس بحقائقَ باهرةٍ إلا حرّموه بقوانينهم ، ولعنوا صاحبه فوق منابرهم ، وغضّوا من مروءته فى صحفهم ، وركِبوه بمختلِف صنوف

الأذى ، حسبما أتاحت لهم الوسائل والملابسات. وقد ضرّجوا أديم الأرض فى شتّى الأصقاع بدماء الأحرار وأشعلوا أطنانَ الحطب لتحريق المفكرين المخلصين حينما كانت جماهير الناس لاتَمِيز بين الخبيث والطيّب . أما الآن فقد قَوِىَ عود الحرّية واشتدّت شوكة الأحرار ، فأصبحوا أعزَّ من أن يسألوا رحمة ، وأمنع من أن يستجْدوا تسامحا ، وغدَوا يسعَوْن إلى التحرّر المطلق قدُماً ، ويقاتلون دونه أصدق القتال .

التفكير الحرّ والبحث الطليق هما السبيل السوىّ إلى الحقيقة ، وليس ثم ماهو أنفع للناس وأوقعُ فى النفس من أن يعثُرَ المرءُ وسْط هذا التيه من التُرَّهات والخزعبِلات على حقيقة كانت مجهولةً أو مطمورة ، فالحقيقة أساسُ كل

بناءٍ وطيد ، ثم هى كذلك تطهّر قلوب الناس وتملأُ نفوسهم نبلا وتضاعف إقبالهم على إيتاء الخير .

ولقد يواجِه بعض رجال الحكومات المتخلفة عن مضمار الحضارة من يسأَلهم : لمَ يَحرِمون شعوبَهم حقَّها فى ممارسة الحريّات التى يستمتع بها الناس جميعاً فى البُلدان ذات الحضارة البُرْجُوازية وبخاصّةٍ أوربا الغربيةُ وأَمريكا الشمالية؟ فلا يجدون مايجيبون به سوى أَن شعوب بلادهم لاتستأْهل هذه الحرّيات ، لأَنها جاهلة والجهل عيب قبيح يجعل من الحرية أَداةً خطِرة فى أَيدى المغرضين تعود على البلاد بالضُّرّ بدلَ الخير . وهو قول باطل ، فليس العيب فى شعوب البلاد التى لاديمقراطيةَ فيها وإنما هو

فى حكوماتها . ضلّ من قال إن فى حرية الرأى خطرا . إن الخطر إنما ينجم عن ستر حقائق الأمور لاعن إظهار الحقّ المستور .

لكل امرىء أن يبدىَ رأيه صريحاً فى كل موضوع سياسىّ أو اجتماعىّ أو اقتصادى . وليس الأمر بمختلف عندما يكون الموضوع موصولا بالدين . ولا وجهَ للزعم بأن فى ذلك خدشاً لشىء مقدّس ، فما من شىء يبلغ من القدسيّة ما يجعله فوق أن يُطرح على بساط البحث ليتدبّره العقل على أساس من العلم . والشىء لايكون مقدّساً قبل أن يُثبتَ البحث الدقيق أنه حق ، وأقدس الكائنات طرّا هو الإنسان ، ولن تنموَ الإنسانية وتزدهر ملكاتُها ومواهبها إلا فى وفرة من النور والهواء . فلنُزِح الغِشاوات التى تحجُبهما عنها ،

ولنهتِك السجوف التى تحول بينهما وبينها ، ولننزِع الأغلال التى تصفّدها والقيود التى تجعلها ترسُف وتتعثّر .

فلنُعلِّمْ أطفالنا أن يشكّوا فيما يُلقَى على مسامعهم ، وأن يُفصحوا عن شكوكهم ، وأن يطلبوا الأدلّة المقنِعة والبراهين المُفحِمة على صحة ما يُطلب إليهم الإيمان به ، ولنُبَيِّنْ لهم أن سهولة التصديق ليست من فضائل الأحرار المعتزِّين بقوّتهم ، وإنما هى من فضائل العبيد الذين لا حول لهم ولا قوّة

مدخل إلى الكتاب

الإسرائيليّات والأديان

ولِع العبريّون[١] بتلفيق الأكاذيب وبرعوا فى تلبيس الحق بالباطل ، وعرَف العالَم منهم ذلك فأصبحت نسبة مذهب فكرىّ إلى اليهود أشنع مَثلَبة يُزَنُّ[٢] بها المذهب

وقد طرح كهنة[٣] اليهود أسفارهم المقدّسة على نَضَد الجراحة ولبِثوا قُرابة ألف عام يُعملون فيها مباضعهم بترا وزرعًا ويُثخنونها إضافة وحذفا .

ولم يكن حظُّ الديانة المسيحيّة مع بنى إسرائيل خيرا من سابقتِها ، فقد جاءهم المسيح يُكمل ناموسهم ويهذّب

(١) وقد أسموا عبريين لأنهم عبروا نهر الأردن فى مغزاتهم لفلسطين .

(٢) أزن فلانا بكذا : اتهمه .

(٣) الكاهن عند النصارى واليهود وعبدة الأوثان الذى يقدم الذبائح والقرابين ، وربما كان مأخوذا فى الأصل من معنى القضاء بالغيب كما كانت تفعل كهنة الوثنيين واليهود . وفى التعريفات : الكاهن هو الذى يخبر عن الكوائن فى مستقبل الزمان ويدعى معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب . وفى الكليات : الكاهن من يخبر بالأحوال الماضية والعراف من يخبر بالأحوال المستقبلة .

طباعهم ، فصدفوا عنه وأعرضوا عن بشارته وأسلموه إلى عُذاته ، ثم راحوا يعبثون بتعاليمه لإغراء الأُميين بالدخول فى دينه متجاهلين قولَه .

«ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه » متى ١٦ :٢٦ .



تقريب القرابين



المرأة تابو

الإسرائيليات فى الإسلام

ولم تَسلم ديانة المسلمين من أذى بنى إسرائيل ، فقد خلبت أباطيلُ اليهود بعضَ رجال الدين فى صدر الإسلام فقفَوا على آثارهم وطابت نفوسهم ، وهم الأُميّون ، أن يتّخذوا من ثياب أحبار أهل الكتاب زيًّا تقليديًّا يميّزهم وأقبلوا يعُبّون من مَنهَل توراتهم [(١)] وتلمودهم [(٢)] ويذيعون تقاليدهم ويُشيعون آراءهم . وطالت الحال على هذا المنوال فاختلط الأمر على ناس من المسلمين وسرى فى وهمهم أن هذه الشعائرَ اليهوديّة والتقاليد الإسرائيلية والأساطير العبرية التى يضيعون فيها أوقاتَهم ويَشغَلون بها أذهانهم إنما هى من صميم الدين ومقوّمات الإيمان فأحسنوا تقبّلها واستمسكوا بها وحرَصوا عليها حرص اليهود أنفسهم . وهكذا اجتمع على إيذاء مفاهيمنا الدينيّة مسلمةُ اليهود ومتهوّدة المسلمين .

---

(١) توراه : شريعة .

(٢) التلمود يعنى التعليم ، وهو ينتظم كتابين هما :

١ — المشنا (بكسر فسكون) أى التعاليم الشفوية ، وقد عمد الكهنة بعد تدمير أورشليم سنة ٧٠ م إلى تدوينه وأنجزوا ذلك بين سنتى ٩٠ م و ٢٢٠ م .

٢ — الجمرا (بكسر ففتح) أى التكملة أو التتمة ، وقد أنجزوا كتابته بين سنتى ٢٢٠ م و ٥٠٠ م .

وقد سلِم القرآن الكريم من عبثهم إذ استظهره حملتُه ودوّنه القَوَمَةُ بالأمر فى مصحف محفوظ .

« إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون »

الحِجْر ٩

فامتنع على هؤلاء المُمَخْرِقين أن يحرّفوا كلمات الله كدأبهم

« وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون »

البقرة ٧٥

فقالوا فى أنفسهم لئن لم نجد السبيل إلى تبديل كلمات الله إن السبيل إلى تبديل معانيها لمعبّدة لنا ، وإن فى مَيدان التفسير والتأويل لمتسعا لكل تدليس وتضليل .

لقد تاح للذين دانوا بالمسيحيّة من يهود القرنَين الميلاديين الأوّلين ومن إليهم أن يصوغوا من يسوعَ المسيح إلها على غِرار آلهة الوثنيّين ، وتاح للذين دخلوا الإسلام من يهود القرنَين الهجريين الأوّلين ومن إليهم أن ينحِتوا من نبيِّ المسلمين نموذجا متأخرا لأنبياء بنى إسرائيل ، وواطأتهم طائفةٌ من

مشيخة المسلمين على تغيير صورته والعبث بسيرته ، فنحلوه أحاديثَ لم يُحدّث بها ونسبوا إليه معجزات لم ينسبها إلى نفسه نسجوا بُرْدتَها بمحاكاة معجزات الأنبياء من بنى إسرائيل (١) فأصبحت له معجزات تكرِّر معجزاتهم كما تُكرِّر معجزاتُ !

(١) مثل رد عين قتادة إلى موضعها بعد سقوطها كما رواه المقريزى فى الجزء الأول من كتابه « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع » وقد عد ذلك من دلائل النبوة التى تجلت فى غزوة أحد .

وذكر ابن عبد البر تفصيل هذا الحادث فى الجزء الثالث من كتابه « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » فقال :

« قتادة بن النعمان ... شهد بدرا والمشاهد كلها وأصيبت عينه يوم بدر (وقيل يوم الخندق وقيل يوم أحد) فسالت حدقته فأرادوا قطعها ، ثم أتوا النبى (ص) فدفع حدقته بيده حتى وضعها موضعها ثم غمزها براحته وقال اللهم اكسها جمالا ، فجاءت وإنها لأحسن عينيه وما مرضت بعد »

وقد روى مثل ذلك عن المسيح ، فقد :

« قدموا إليه أعمى وطلبوا إليه أن يلمسه . فأخذ بيد الأعمى وأخرجه إلى خارج القرية وتفل فى عينيه ووضع يديه عليه ... فعاد صحيحا وأبصر كل إنسان جليا » .

مرقس ٨ : ٢٢ — ٣٥ .

وهو ما يقصه يوحنا على نحو مختلف إذ يقول :

« قال هذا وتفل على الأرض وصنع من التفل طينا وطلى بالطين عينى الأعمى . وقال له اذهب واغتسل فى بركة سلوام (الذى تفسيره مرسل) فمضى واغتسل وأتى بصيرا » .

يوحنا ٩ : ٦ — ٧

وقد أغفل متى ولوقا ذكر هذه المعجزة تنزيها للرب عن الاعتماد فى الإتيان بمعجزاته على أشياء مادية من هذا القبيل .

عيسى معجزات موسى [١] واليشع [٢] ، وكما يكرّر يشوعُ ابن نون بأعماله ومعجزاته ماأتاه موسى ن هذا القبيل [٣] ،

---

(١) ١ — فلقد نجا موسى فى طفولته بطريقة فذة من خطر كان يحوم حوله بوصفه مجرد واحد من أولاد العبرانيين الدخلاء (خروج ١ : ٢٢) ونجا يسوع الطفل بطريقة فذة من خطر مقتلة كان هو المقصود فيها بالذبح (متى ٢ : ٧–٨) .

٢ — وتجلى موسى على جبل سينا بمرأى من ثلاثة من مشيخة اسرائيل واتخذ يسوع من أحد الجبال مسرحا تجلى فيه بمشهد من ثلاثة من رسله (متى ١٧ : ١–٣) .

٣ — وكان موسى يمن على المجذومين بالشفاء بعد أن ينبذهم من البلدة (عدد ١٢ : ١–١٥) وتلاه يسوع فكان يبرئهم حيث هو بلمسة من يده (متى ١٨ : ١–٣) .

(٢) ٤ — فقد أحيا اليشع صبيا كان قد قضى منذ لحظة (٢ ملوك ٤ : ٣٢–٣٥) وبعث يسوع صبيا من الموت بعد أن فاضت روحه بأربعة أيام (يوحنا ١١ : ١٧–٤٤)

٥ — طهر اليشع مجذوما واحدا (لوقا ٤ : ٢٥–٢٧) وجعل يسوع يبرىء المجذومين زرافات زرافات (لوقا ١٧ : ١٢–١٤) و(متى ١٥ : ٢٩–٣٢) .

٦ — اجتاز اليشع نهر الأردن سعيا على القدمين (٢ ملوك ٢ : ١٤). ومشى يسوع شقة طويلة على متن الماء فى بحيرة مختبطة الأمواج (يوحنا ٦ : ١٨–٢٠) .

٧ — صنع اليشع ١٢ لترا من الزيت (٢ ملوك ٤ : ١–٧) وصنع يسوع ١٢٠ لترا من الخمر (يوحنا ٢ : ١١) .

٨ — أطعم اليشع ١٠٠ رجل سد جوعتهم بـ ٢٠ رغيفا (٢ ملوك ٤ : ٤٢ –٤٤) وأطعم يسوع ٥،٠٠٠ أسرة وأشبعهم بـ ٥ أرغفة وسمكتين (متى ١٤ : ١٩–٢١) .

(٣) ١ — فلقد عبر موسى وقومه البحر الأحمر (أو البحيرات المرة أو بحيرة المنزلة أو أو إلخ إلخ ... (والماء منحسر عن قاعه وبعد ٤٠ عاما عبر يشوع بأبنائهم نهر الأردن على ذلك النحو قبالة أريحا (يشوع ٣ : ١٧) .

٢ — وأقام موسى فى سفح جبال سينا ١٢ عمودا من الحجر (خروج ٢٤ : ٤ ونصب يشوع ١٢ حجرا فى الجلجال (يشوع ٤ : ٢٠) .

٣ — وأحيا موسى منسك الختان (خروج ١٢ : ٤٣–٤٤) وكذلك أحياه =

وأدخلوه هو وربَّه فى مساومة مُلِحَّة[1] ،وأنبتوا شجرةَ نسب

= يشوع (يشوع ٥ : ٣) .

٤ — واشترع موسى الاحتفال فى عيد الفصح (خروج ١٢ : ١٤— ١٥) واحتفل له يشوع ورهطه (يشوع ٥ : ١٠—١١) .

٥ — وقال الله لموسى أن يخلع نعليه لأنه كان فى واد مقدس (خروج ٣ : ٤—٥) وكذلك قال ليشوع (يشوع ٥ : ١٥) .

٦ — ونقش موسى شريعته على لوحين من الحجر (خروج ٣١ : ١٨) وفعل يشوع قبيل موته ما يشبه ذلك (يشوع ٢٤ : ٢٦—٢٧) .

(١) جاء فى الجزء الثانى من سيرة ابن هشام :

« ومن حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى (ص) فيما بلغنى أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن فى دخولها : من هذا يا جبريل ؟ ... حتى انتهى به إلى السماء السابعة ، ثم انتهى به إلى ربه ، ففرض عليه خمسين صلاة كل يوم ، قال رسول الله (ص) : فأقبلت راجعا ، فلما مررت بموسى بن عمران ، ونعم الصاحب كان لكم ، سألنى كم فرض عليك من الصلاة ؟ فقلت خمسين صلاة كل يوم ، فقال إن الصلاة ثقيلة وإن أمتك ضعيفة فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك ، فرجعت فسألت ربى أن يخفف عنى وعن أمتى ، فوضع عنى عشرا ، ثم انصرفت فررت على موسى فقال لى مثل ذلك فرجعت فسألت ربى أن يخفف عنى وعن أمتى فوضع عنى عشرا ، ثم انصرفت فررت على موسى فقال لى مثل ذلك ، فرجعت فسألت ربى فوضع عنى عشرا ، ثم رجعت فسألته فوضع عنى عشرا ، فررت على موسى ثم لم يزل يقول لى مثل ذلك كلما رجعت إليه ، قال فأرجع فأسأل حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عنى إلا خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، ثم رجعت إلى موسى فقال لى مثل ذلك ، فقلت قد راجعت ربى وسألته حتى استحييت منه ، فما أنا بفاعل ، فمن أداهن منكم إيمانا بهن واحتسابا لهن كان له أجر خمسين صلاة » اه .

من خصائص أبناء إسرائيل وآباء إسرائيل أنهم يحسنون إجراء المساومات . وفى الحق لقد أدار موسى هذه المساومة المذكورة آنفا فى حذق يذكرنا بجده إبراهيم .

. . . .

ذلك أن المولى جل شأنه تعاظمه ما تمج به مدينتا سودوم وعمورة وما حولهما من معاصى قوم لوط فقرر إهلاك تلك الأصقاع وعلم إبراهيم بذلك فتملكه الأسى وراح يناجى ربه :

« فتقدم إبرهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم . عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارا الذين فيه . حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم . حاشا لك . أديان كل الأرض لا يصنع عدلا . فقال الرب إن وجدت فى سدوم خمسين بارا فى المدينة فانى أصفح عن المكان كله من أجلهم . فأجاب إبرهيم وقال إنى قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد . ربما نقص الخمسون بارا خمسة . أتهلك كل المدينة بالخمسة فقال لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين . فعاد يكلمه أيضا وقال عسى أن يوجد هناك أربعون . فقال لا أفعل من أجل الأربعين . فقال لا يسخط المولى فأتكلم . عسى أن يوجد هناك ثلثون . فقال لا أفعل إن وجدت هناك ثلثين . فقال إنى قد شرعت أكلم المولى . عسى أن يوجد هناك عشرون . فقال لا أهلك من أجل العشرين . فقال لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط . عسى أن يوجد هناك عشرة . فقال لا أهلك من أجل العشرة . وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع ابرهيم ورجع إبرهيم إلى مكانه » .

تكوين ١٨ : ٢٣ — ٣٣

ولم يجد الرب فى المدينة أولئك العشرة المنشودين من أهل الصلاح، ولهذا سلط عليها جبريل فرفعها بطرف جناحه إلى السماء — كما يزعمون — حتى كان أهل الجنة يسمعون عواء كلابهم، ثم قلب جناحه فهوت إلى الأرض من عل، ولهذا تسمى قرى قوم لوط بالمؤتفكات ، يقال : ائتفكت البلدة بأهلها أى انقلبت .

تربُط بينه وبين اليهود بـآصرة قُرْبَى كاذبة[1] ،وقوّلوه فى هذا المعنى حديثا لم يجرِ به لسانُه ، يقول :

---

(١) ذكرت التوراة أسماء أبناء اسماعيل فى الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين ، وليس فيها ما يوحى بأن اسماعيل أوطن بأبطح مكة (أى مسيل واديها) أو أنه انتجع تلك الأصقاع فى يوم من الأيام ، بل هى تقول

«وسكنوا من حويلة الى شور التى أمام مصر حينما تجىء أشور »

تكوين ٢٥ : ١٨

نعم ، نحن نذكر أن أورشليم قد دمرتها فى سنة ٥٨٦ ق.م جحافل الملك الكلدانى بختنصر ، وأنّ الكارثة تكررت سنة ٧٠ م على يد تيطس ابن الإمبراطور الرومانى فسبسيان ، وأن هذا التدمير الشامل شتت شمل اليهود وفرقهم أباديد فى مختلف الأمصار ، وكان من بينهم قبائل وبطون شدت رحالها الى الجزيرة العربية ، بيد أن هاتين الهجرتين وقعتا فى أزمنة قريبة العهد ولا صلة لها بإبرهيم الذى رحل من موطنه الأصيل أور الكلدان إلى أرض كنعان حوالى سنة ١٩٥٠ ق.م

وقد سد القرآن الكريم ما فى معلوماتنا حول رحيل إبرهيم وإسماعيل إلى مكة من قصور فقال :

«وعهدنا الى ابرهيم وإسماعيل أن طهرا بيتىللطائفين والعاكفين والركع والسجود. . . . وإذ يرفع إبرهيم القواعد من البيت وإسماعيل ... »

البقرة ١٢٥–١٢٧

وهذا يفيد أن اسماعيل وطىء أرض الحجاز يوما ما ، أما أن محمدا تسلسل من ذريته فليس يستفاد مما ذكرنا .

ونقل ابن جرير الطبرى فى الجزء الثانى من كتابه «تاريخ الأمم والملوك» نسب رسول الله ص فقال ؛ هو :

« محمد بن عبد الله ... بن معد بن عدنان بن أدد ثم يختلفون فيما بعد ذلك» اهـ

« إن الله اصطفى من وَلَد إبرهيم إسماعيل [(١)] واصطفى من إسماعيل كِنانة ، واصطفى من كِنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم .فأنا خيار من خيار من خيار [(٢)] » .

---

(١) يرى اليهود والمسيحيون –بخلاف ذلك– أن الذى اصطفاه الله من ولد ابرهيم إنما هو اسحق لأنه ابن السيدة الحرة ولأنه أبو يعقوب أى أبو إسرائيل وبنى اسرائيل جميعا ولأنه جد يطلهم القومى مسيح الله داود ، وداود هو الذى انحدر من سلالته الرب المخلص يسوع المسيح ، أما اسماعيل فقد طرده أبوه كما طرد أمه ، وهو –عندهم– دون أخيه مقاما لأنه ابن أمة وما أسوأ أن يكون المرء ابن أمة

« فإنه مكتوب أنه كان لابرهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرة . لكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد وأما الذى من الحرة فبالموعد ، وكل ذلك رمز لأن هاتين هما العهدان »

غلاطية ٤ : ٢٢–٢٤

وقد جاء فى التوراة أن اسماعيل دعى بهذا الاسم لأن ملكا من السماء لقى أمه هاجر حين ولت من جور سيدتها سارة وإذلالها لها فهدأ جأشها وأخبرها أن الرب قد « سمع » دعاءها ، وتقدم اليها بأن ترجع أدراجها .

«وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه اسمعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك . وإنه يكون إنسانا وحشيا . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه »

تكوين ١٦ : ١١–١٢

(٢) أليس ذلك شبيها بقول الملك داود حينما خص ابنه سليمان (ابن السيدة بتشبع التى اغتصبها داود عندما كان زوجها أوريا الحثى يذود عن حمى الوطن والدين فى حومة القتال ، حتى إذا حملت منه سفاحا أمر باغتيال زوجها وضمها الى حريمه وأقام على حبه لها مؤثرا إياها على سائر نسائه) ، نقول حينما خص ابنه هذا بولاية العهد دون أخيه الأكبر أدونيا الذى يطش به سليمان فيما بعد

وبما أنهم جعلوا من إسماعيل جَدًّا للنبيّ فقد وجدوا مما يجب له أن ينحَلوه شرفا يعوّضه من الشرف الذى أسبغوه على النبيّ (ص) بانتحال أبوّة إسماعيل له ، فزعموا أنه هوالذى انطلق بصحبة إبرهيم :

« فلما بلغ معه السعى قال يابُنَىّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظرماذا ترى ، قال يا أبتِ افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين »

الصافّات ١٠٢

وأنكروا أن هذه القصة تتّصل بأخيه إسحق (١)

= «وقد اختارنى الرب اله اسرائيل من كل بيت أبى لأكون ملكا على اسرائيل الى الأبد لأنه إنما اختار يهوذا رئيسا . ومن بيت يهوذا بيت أبى . ومن بنى أبى سر بى ليملكنى على كل اسرائيل . ومن كل بنى — لأن الرب أعطانى بنين كثيرين — إنما اختار سليمان ابنى ليجلس على كرسى مملكة الرب على اسرائيل »

١ أخبار ٢٨ : ٤—٥

(١) نقل ابن جرير الطبرى فى الجزء الأول من كتابه «تاريخ الأمم والملوك» عن عن ... عن محمد بن كعب القرظى أنه حدثهم أنه تحدث فى ذلك الى عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، إذ كان معه بالشام ، فقال له عمر : إن هذا لشىء ماكنت أنظر فيه وإنى لأراه كما قلت ، ثم أرسل الى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم فحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء اليهود فسأله عمر ... أى ابنى ابرهيم أمر بذبحه ، فقال : «اسماعيل والله يا أمير المؤمنين . وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه والفضل الذى ذكره الله منه لصبره على ما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن اسحاق أبوهم » ...

وقد طاب لبعض من « أسلموا » مقادهم من بنى إسرائيل دون أن يحْسُنَ إيمانُهم أن يزفُّوا إلينا بعضَ ما يعلمون من جغرافية الجنَّة[١] (دون أن يلاحظوا أن الجنَّة — عندنا — فى السماء لا على الأرض كما يفهم من التوراة الحاليّة) وأن يَدُسّوا فى أثناء الشريعة الإسلاميّة أمورا هى من أسس الديانة اليهودية ، مثلَ تحريم النحت والتصوير وهما ما تنهى عنه

(١) ذكر الخطيب القسطلانى فى كتابه «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» وهو يتابع عروج النبى ص الى السماء بصحبة جبريل وتطوافهما فى الجنة وبلوغهما سدرة المنتهى وهى شجرة نبق لا يسمح للمؤمنين بأن يتجاوزوها فى جولاتهم .

«فإذا فى أصلها» أى سدرة المنتهى «أربعة أنهار . وعند مسلم يخرج من أصلها . وعنده أيضا — من حديث أبى هريرة — أربعة أنهار من الجنة : النيل والفرات وسيحان وجيحان»

وهذا يطابق ما جاءت به التوراة

«وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شبية للنظر وجيدة للأكل . وشجرة الحيوة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر . وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة . ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس . اسم الواحد فيشون . وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب . وذهب تلك الأرض جيد . هناك المقل وحجر الجزع . واسم النهر الثانى جيحون . هو المحيط بجميع أرض كوش واسم النهر الثالث حداقل وهو الجارى شرقى أشور . والنهر الرابع الفرات»

تكوين ٢ : ٩—١٤

الوصيّة الثانية [1] من وصاياهم العشر ، ومثل التورّع عن ذكر كلمة « الله » أو ما هو فى معناها ، وهو ما تنهى عنه الوصية

---

(١) وعبارتها

« لا يكن لك آلهة أخرى أمامى . لاتصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض»

خروج ٢٠ : ٣-٤

وقد عرض بعض الباحثين لأثر هذه الوصية فى بنى اسرائيل فقال إنها أخمدت فيهم النزعة الفنية وسلبتهم الإحساس بالجمال وصبغت حياتهم بلون قاتم وأسبلت عليهم ثياب الحداد وضربت عليهم الكآبة والأسى وألقت بهم فى سجن من سخافة العقل وضيق الأفق وجعلت حياتهم خلوا من الرحابة والحب ومن السمو والإلهام ، وإنها أحفظت عليهم الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها .

وذكر المؤرخ اليهودى الشهير فلافيوس يوسفوس أن اليهود كانوا — خلال احتلال الرومان بلادهم — يأبون تداول النقود الرومانية فيما بينهم لمكان صورة قيصر عليها ، وأنهم لجوا فى تحطيم التماثيل والنصب التذكارية الرومانية المقامة فى الطرقات فأرثوا بهذه المقاومة نيران الأحقاد والإحن فى صدور الرومان .

ونفد صبر القيصر كاليجولا آخر الأمر ، فحمل جنوده عليهم أول حملة معادية لليهود فى التاريخ وبطشوا بهم ، وكان استظهار تيطس على بيت المقدس سنة ٧٠ م بدء تشتت اليهود وتشردهم فى مختلف أرجاء العالم

وما انفك بنو اسرائيل فى البلدان التى لجأوا اليها متشبثين بالتعصب الأعمى لتقاليدهم ، مما ألجأ أهل تلك البلدان الى حرمانهم الكثير من الحقوق المدنية وحصرهم فى أحياء خاصة بهم أفردوها لهم فى المدن فلا مقام لهم فى غيرها ، وهكذا نشأت «حارة اليهود» (جتو) وتأججت السخائم المعادية للسامية .

الثالثة [١] ، فقد تجد مدرّسا للغة العربيّة يقول فى إعراب كلمة « وجه الله » مثلا : وجه مضاف ولفظ الجلالة مضاف إليه

(١) وعبارتها

«لاتنطق باسم الرب الهك باطلا لأن الرب لايبرىء من نطق باسمه باطلا»

خروج ٢٠ : ٧

فاليهودى المتزمت يتحاشى ذكر كلمة «الله» ويرمز اليها بكلمة «أدوناى» أى السيد . وقد يستعيض عن ذلك بقوله «الاسم ذو الأربعة الأحرف»

بيد أن كلمة «الله» أو «الرب» أو «السيد» ليست هى اسم خالق الكون بل هى من ألقابه

وقد كانت عقيدة الإسرائيليين القدماء قائمة على السحر ، فكانوا يعتقدون أن لله اسما ذا قوة سحرية

«فيجعلون اسمى على بنى اسرائيل وأنا أباركهم»

عدد ٦ : ٢٧

وعندهم أن الله خلق الكون بأن نطق باسم نفسه ، وأن بعض المقربين من الله وبعض العرافين والكهنة الفاقهين لخواص تركيب الحروف استطاعوا أن يأتوا بالخوارق بفضل التفوه باسم الله ، ولهذا يحرم التابو ذكر هذا الاسم درءاً لوقوع كارثة تطيح بالعالم . ولهذا الاسم قدسية ، فمن سبه كان مجدفا يستحق القتل بالرجم ، ومن ذلك أن رجلا من أب مصرى وأم اسرائيلية هجر أباه ووطنه ونزح بصحبة أمه مع من هاجروا بقيادة موسى ، واشتجر النزاع بينه وبين بعض الإسرائيليين واستفزه القوم فبدرت منه ألفاظ سباب وبادر الإسرائيليون بإبلاغ ذلك الى موسى . ووجد موسى نفسه بإزاء جريمة جديدة لم يكن قد أعلن عقوبتها من قبل ، ولهذا سأل ربه فأمر رب اليهود موسى بقتل ابن المصرى

«فكلم الرب موسى قائلا . اخرج الذى سب خارج المحلة فيضع جميع السامعين أيديهم على رأسه ويرجمه كل الجماعة . وكلم بنى اسرائيل قائلا كل من سب الهه يحمل خطيته . ومن جدف على اسم الرب فإنه يقتل . يرجمه كل الجماعة رجما . الغريب كالوطنى عندما يجدف على الاسم يقتل »

لاويون ٢٤ : ١٣-١٦=

ونشط اليهود إلى ترويج أخبار الجانّ وهوّلوا فى أخطار السحر والحسد ونوّهوا بالتكهّن والتطيّر ومعالجة الأمراض بالرُّقَى والتمائم، مما صرف عقول العامّة عن الربط بين العلل والمعلولات وجعلهم يلتمسون للمسبَّبات أسبابا غيبية لايدركها الحِسّ ولا يتناولها المنطق ، ثم إنهم زيّنوا لمن تابَعهم على مذهبهم من المسلمين أن يتّجهوا بعنايتهم إلى ظاهر مراسم العبادات وإلى الذِّكر وما إليه ، وأن يدوروا بمباحثهم فى حلْقة مفْرَغة من الجدليّات ، وأن يَعنُفوا بأصحاب الآراء المخالفة لهم، فأقفلوا بذلك باب الاجتهاد وأصابوا الفكر بالركود والأَسَن وطبعوا الدين اليُسْر بطابع الصرامة والقساوة [١].

= إن التابو الذى يحرم النطق باسم الله يكاد يكون قد عم الأديان البدائية كافة . وآخر ما سمعنا من هذا القبيل أن ضابطا يابانيا منذ عشرات السنين اكتشف أن الاسم الذى أطلقه على ابنه هو اسم الإمبراطور (وكانوا ينظرون إلى الميكادو على أنه سليل اله الشمس) فاعتزل عمله وانتحر تكفيرا عن انتهاكه هذا التابو .

ومن الواضح أن الإسلام الصحيح ينهى عن هذا التزمت القبيح الذى حاول اليهود أن يورثونا إياه

(١) ومرد هذه الصرامة والقساوة فى دين اليهود الى الأحوال التى لابست ذلك الدين إبان نشوئه زمانا ومكانا وبيئة

١ — فقد بدأ الدين اليهودى نشوءه فى عهد سحيق موغل فى القدم ، ولهذا كانت جذوره ترتد الى عهد البدائية الاقتصادية والعشائر يومئذ تتنازع الأراضى الأريضة على ضفاف الأنهار فيفتك المنتصر منها بالمنهزم ولا يكتفى بدحره من المكان المنشود بل يستأصل شأفته ، إذ أن البشرية كانت فى تلك الحقبة من الدهر =

وقد استطاع الذين أسلموا من اليهود فى زمن مبكر أن يطمسوا على عقول طائفة من شيوخ المسلمين كانوا يشعرون بعوزهم إلى العلم وقصورهم فى الفقه ، وأن يزحموا حافظتهم بتفصيلات التاريخ الدينى اليهودى مما حدث وما لم يحدث [1]

= صفر اليدين من الأدوات والآلات التى اخترعت فى مرحلة تالية فجعلت العشيرة الظافرة ترى من مصلحتها أن تتعبد المهزومين وتسخرهم فى العمل لها .

٢ — وقد كان العبريون يقطنون الصحارى والمفاوز مع وحوش الفلا ويعتمدون مثلها فى تحصيل قوتهم على الصيد والقنص وعلى السلب والنهب ، وكانوا كثيرا مايهاجرون ويتنقلون ويجوبون الفيافى والأوعار ، وإنها لحياة قاسية لا محل فيها لمن يعرض له ضعف أو تخالجه رحمة .

٣ — يضاف الى ما تقدم أن اليهود لبثوا الى عهد غير بعيد لايؤمنون بالحياة فى اليوم الآخر حياة يجازى المرء فيها بالعقاب أو الثواب، فينبغى لإلاههم أن يعاقبهم على آثامهم فى هذه الحياة بعقاب سريع أو موت ذريع . وبما أن العشيرة فى تلك الحياة الجاهلية تعد متضامنة جميعا فى احتمال تبعات كل جريمة تقع من أحدهم فهى تتضامن أيضا فى تلقى العقوبة ، ومن ثم وجب عليها ألا ترحم من يعرضها لغضب الإله المنتقم .

(١) وإن المرء ليفتش كتابا مثل « قصص الأنبياء المسمى بالعرائس » لابن إسحق بن ... إبراهيم الثعلبى فيجد فيه جماع ما فى الكتاب المقدس ، فهو لم يقتصر على أخبار الأنبياء الذين ورد لهم ذكر فى القرآن الكريم بل شمل كذلك أخبار من هم أهون من أولئك شأنا من أمثال « شمسون عليه السلام » . =

وأن يبلّغوهم حُكما من أحكام دينهم لايسيغه الدين السّمْح

وقد كتب سيرة إبرهيم ، فنقل عن السدى أن الملك نمروذ فزع من رؤيا رآها فى منامه ، فدعا السحرة والكهنة ومن إليهم .

« فقالوله هو مولود يولد فى ناحيتك هذه السنة يكون هلاكك وهلاك أهل بيتك على يديه . فأمر نمروذ بذبح كل غلام يولد فى تلك الناحية تلك السنة » .

وبذلك كرر نمروذ مقدما ما فعله هيرودس مع يسوع بعد عشرين قرنا ، غير أن الله أنجى إبراهيم من « مذبحة الأطفال » كما أنجى منها موسى وعيسى وكريشنا وغيرهم .

ثم أتى الكتاب بقصة إحراق إبرهيم فى النار ، وهى قصة اكتفى القرآن الكريم بالإشارة إليها إشارة عابرة تقول إن القوم ائتمروا بإبرهيم ودار بخلدهم أن يحرقوه بالنار فأبطل الله كيدهم وأنقذه من شرهم .

« قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين »

الأنبياء ٦٨ — ٧١

وقد اقتضت حكمة مبدع الذكر الحكيم أن يكتفى بهذه الإشارة العابرة وألا يقطع فى القول بشىء ولا يسهب فى تفصيل مالا وجه لتفصيله ، ولكن الثعالبى المذكور آنفا آثر أن يزيد القصة تفصيلا ، فأثبت فى كتابه :

١ — أن إبراهيم أحفظ عليه الملك نمروذ بمخالفته عن طريق قومه فى العبادة .

٢ — فأمر الملك به فألقوه فى النار .

٣ — فبعث الله إليه ملكا من ملائكته قعد إلى جنبه فيها .

ولا يقرّه القرآن الكريم ، ذلك هو قتل كل من استبان له

---

٤ — « ثم أشرف نمروذ من صرح له عال ونظر إلى ابرهيم عليه السلام وما يشك أنه قد هلك فرآه جالسا فى روضة ورأى الملك القاعد إلى جنبه وحوله نار تحرق ما جمعوا من الحطب »

٥ — « فناداه نمروذ : يا إبرهيم . كبير الهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك يا إبرهيم فهل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال نعم . . . »

٦ — « فقام إبرهيم عليه السلام يمشى فيها حتى خرج منها » الخ الخ

لقد عنيت التوراة بإيراد سيرة إبرهيم مفصلة مسهبة ومع ذلك لم تذكر من أمر إحراقه بالنار ذروا من قول ، فأين وقع صاحب « قصص الأنبياء على كل هذه التفصيلات ؟ هل يمكن أن تكون من بنات خياله ؟ كلا ، فقد استعارها من قصة وردت فى العهد القديم مفادها أن نبوخذ نصر (بختنصر) ملك بابل وغر صدره على ثلاثة من اليهود أبوا أن يعبدوا إلهه فأمر بإلقائهم فى النار ، فأوقد عماله النار وألقوا بهم فيها ، فبعث الله اليهم ملكاً من ملائكته

« ٢٤ — حينئذ تحير نبوخذنصر الملك وقام مسرعا فأجاب وقال لمشيريه ألم نلق ثلاثة رجال موثقين فى وسط النار . فأجابوا وقالوا للملك صحيح أيها الملك

٢٥ — أجاب وقال ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون فى وسط النار وما بهم ضرر ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة

٢٦ — ثم اقترب نبوخذ نصر إلى باب أتون النار المتقدة وأجاب فقال ياشدرخ وميشخ وعبدنغو يا عبيد الله العلى اخرجوا وتعالوا . فخرج شدرخ وميشخ وعبدنغو من وسط النار »

دانيال ٣ : ٢٤ — ٢٦

فسادٌ فيما يلقّنون من عقائدَ [١] فارتدّ عنها يبحث عن الحقيقة ، بل لقد أوشكوا أن يغلّلوا المسلمين بما غلّلت التوراةُ به اليهود من الأوامر والنواهى التى أبطلها القرآن الكريم .

« ... ويُحلّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرَهم [٢] والأغلال التى كانت عليهم ... »

الأعراف ١٥٧

---

(١) « إذا أغواك سرا أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذى مثل نفسك قائلا نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة الشعوب الذين حولك القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض إلى أقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له . ولا تستره بل قتلا تقتله . يدك تكون عليه أولا لقتله ثم أيدى جميع الشعب أخيرا . ترجمه بالحجارة حتى يموت » .
تثنية ١٣ : ٦—١٠ .

وهى سنة لا تهدر دم المرتد عن دين آبائه فحسب بل تهدر قبل ذلك حرية الفكر وتكره الناس على قبول عقائد لا يرضاها عقل ولا يقرها منطق . وكان الأجدر برجال الدين أن يقرعوا الحجة بالحجة وأن يزعوا مخالفيهم بالبرهان لا بالسلطان .

وفى مثل هذا الموضع يقول القرآن الكريم عن الوالدين :

« وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

لقمان ١٥

« ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما . إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

العنكبوت ٨

(٢) الإصر : الثقل ، وهى هنا تعنى التكاليف الشاقة .

وقد استمرأ بعض الذين كتبوا فى التفسير مرعى اللاهوت الإسرائيلىّ ، فكلما اعتاص على أحدهم تفسير آية من آى القرآن الكريم أو رغِب فى التزيّد فى إبراز واسع إلمامه ، والتدليل على غزارة نبعه ، وإفهام الخَلق أن عندَه علم الكتاب ، وإيهام القرّاء أنه أوتِى معارف الأولين والآخرين ... رجَع إلى الكتاب المقدّس يغترف من منهله كأنه هو الكتاب الأصلىّ المفصَّل والقرآن صورةٌ موجَزة منه . ولقد يشير الذِّكر الحكيم فى معرِض الوعظ والإرشاد إشارة عابرة إلى قصة قديمة من قصص اليهود حظِيت فى الجاهلية بحظٍّ من الشيوع والانتشار واستحقَّت أن يشار إليها لموضع العِبرة منها . وقد كان من أسلوبه الحكيم أن ينقِّىَ هذه القصص مما يشوبها وأن يسمُو بها إلى حقائقها ؛ فإذا هؤلاء المفسّرون يفزَعون إلى كتب اليهود الدينيّة يفتّشونها وينقِّبون فيها ، ثم إذا هم يُسهبون فيما نبذه كتابُنا الدينىّ من أباطيل تلك القصّة ، ويضعون فى حواشى الكتاب الكريم ما تنزَّه الكتابُ عنه ، يحسَبون أنهم يتمّمون بذلك تفسيره ، فتراهم يذكرون فى عُرض حديثهم أسماء أبطال القصّة وأنذالها وأشخاصها الثانويين ، حتى لتُحسّ وأ ت تقرأ كلامهم أنك تتلو صفَحَاتٍ من التوراة ، بل إنهم ليركبون فى بعض الأحيان

متن الشطط فيُضفون على من يرِد ذكرهم فى القصّة من كهّان اليهود وأنبيائهم قدسيّةً لم تجُدْ بمثلها أريحيّةُ كاتبى الكتاب المقدّس أنفسِهم

ولسنا نَزرى على رجال الدين الإسلامىّ مطالعتَهم الكتابَ المقدس ، بل إنا لنحثّهم على ذلك لأنّا نعرف أن هذا الكتاب السامىّ الأصيل مرجع كبير النفع للمشتغلين بأُصول اللغة العربية ولمن يبتغون التفقّه فى علوم الدين الإسلامىّ ونعلم أنه يقيهم العثراتِ عندما يفسّرون آياتٍ مثلَ :

« ولا يدخلون الجنّة حتّى يلجَ الجمل فى سَمّ الخياط[1] »

الأعراف ٤٠

---

(١) فقد طوعت الحذلقة لبعض الشراح أن يفسروا « الجمل » بأنه حبل السفينة الغليظ ، وهو تفسير لا تنكره اللغة ولا ينبو عنه السياق ولكننا لا نأخذ به لأننا نعرف أن لهذه الآية القرآنية نظيرا فى الأناجيل هو :

« وأقول لكم أيضا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » . متى ١٩ : ٢٤

وكلمة « جمل » فى الآية الإنجيلية يقابلها فى الترجمة الإنجليزية « Camel » فلا مجال للتمحل .

« يا أخت هٰرون [1] ما كان أبوك امرأ سوء ... » مريم ٢٨

(١) التاث الأمر على المفسرين إزاء قوله تعالى « يا أخت هارون » فجعل بعضهم يتساءلون : هل كان لمريم أخ اسمه هرون ؟ وكان أقصى ما تفتقت عنه أذهان الجمهرة منهم هو أن هذا النداء ينطوى على تشبيه للسيدة مريم برجل من أهل زمانها لا ريب أنه كان ذائع الصيت ، ولكنهم ليسوا على بينة من سر شهرته : أهو إفراطه فى النسك والصلاح ، وفى هذه الحالة يكون التشبيه للمدح ، أم هو تفريطه فى دينه وإغراقه فى الفسق والطلاح ، وفى هذه الحالة يكون التشبيه للتهكم والقدح .

ولم ينر لهم طريقهم أن القرآن تحدث فى شأن السيدة مريم مرة أخرى فنسبها إلى عمران :

« ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » . التحريم ١٢

ويرجع تخبطهم فى دياجير الظلام إلى جهلهم بأن السيدة مريم أم عيسى لم تكن ابنة لعمران ، وبأن هناك سيدة أخرى تدعى مريم ويدعى أبوها عمران ويدعى أخوها هرون ، تلك هى أخت النبى موسى .

« واسم امرأة عمرام يوكابد بنت لاوى التى ولدت للاوى فى مصر . فولدت لعمرام هرون وموسى ومريم أختهما » . عدد ٢٦ : ٥٩ .

كانت مريم هى الأخرى نبية كأخويها ، وقد جاء ذكرها فى التوراة إذ كانت تقود فتيات اليهود وهن يرقصن ويترنمن بالأناشيد ابتهاجا بغرق الجيش المصرى فى أعماق البحر وهو يتعقب اليهود الآبقين .

« فأخذت مريم النبية أخت هرون الدف بيدها . وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص . وأجابتهم مريم رنموا للرب فانه قد تعظم . الفرس وراكبه طرحهما البحر » . خروج ١٥ : ٢٠-٢١ .

ولعل فيما تقدم ما يكفى لإيضاح أن الذكر الحكيم لم يشبه السيدة مريم برجل من معاصريها بل بامرأة سبقتها بأكثر من أربعة عشر قرنا .

لقد حبس مفسرونا أنفسهم فى دائرة العلوم الإسلامية عازفين عن علم الأديان المقارن فأتاحوا بذلك لفريق من المستشرقين أن يكشفوا فى لاهوتناثغرة يسددون منها طعنة إلى الدين الحنيف بزعمهم أن النبى خلط بين المريمين ونادى إحداهما بلقب الأخرى « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » . الكهف ٥ .

« الذين يتّبعون الرسول النبيّ الأُمّيّ[1] الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ...

... فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأُمّيّ[1] الذى يؤمن بالله

---

(١) وقد تجاوز كثير من المفسرين عن شرح كلمة « الأمى » كأنما هى واضحة لا تفتقر الى شرح وتفسير . وقلبها آخرون على مختلف وجوه الاشتقاق والتصريف فجعلوها منسوبة :

١ — الى أمة العرب لأن الأمية غالبة عليهم .

٢ — الى أم القرى (أى مكة) لأن أهلها كانوا كذلك (رواه القرطبى عن النحاس) .

٣ — الى أمه ص إذ أنه كان على الفطرة كما ولدته أمه .

٤ — الى الأم (مطلقاً) باعتبار أنه ص أم الموجودات . وقد اختير هذا اللفظ لما فيه من الإشارة الى الرحمة والشفقة ، وهو ص أشفق على الخلق من الأم بولدها .

٥ — الى الأم (بفتح الهمزة) بمعنى القصد لأنه مقصود ، ويؤيد هذا الرأى قراءة يعقوب « الأمى » بفتح الهمزة .

وقد ألتى فى روع الكثيرين أن المقصود بهذه الكلمة نفى إلمام النبى بالقراءة والكتابة للبرهنة على استحالة أن يكون مع جهله بهما مؤلف هذا الكتاب ومبتدع ما فيه من بلاغة ممتنعة ومعارف متسعة وحكم مجتمعة . قال الألوسى فى تأييد هذا الرأى :

« وصف ص بذلك تنبيها على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته » أ هـ

فأما جهل النبى بالقراءة والكتابة فهو أمر غير مجمع عليه . قال الألوسى :

« اختلف فى أنه صدر عنه الكتابة فى وقت أم لا ، فقيل نعم صدرت عنه عام الحديبية فكتب الصلح ، وهى معجزة . وقيل لم يصدر عنه أصلا .

وحدثنى عون بن عبد الله عن أبيه قال : ما مات النبى حتى قرأ وكتب » أ هـ =

وكلماته واتّبعوه لعلكم تهتدون »

الأعراف ١٥٧ — ١٥٨

= وأما البرهان المستمد من كونه لا يقرأ ولا يكتب فواه لا يقيم دليلا ولا يدحض فرية :

١ — لأن الجهل بالقراءة والكتابة لاينفى اتساع الثقافة ولا يحول دون تحصيل قدر كبير من المعرفة .

٢ — ولأن فقر المرء فى معارفه قد يعوض منه باستمداد المعلومات من ذوى الخبرة والمعرفة . وليس بسر أن المشركين زعموا أن هناك من يلقن النبى تلك المعلومات التى يطالعهم بها الكتاب ، فكذبهم الله بالآية الكريمة

« لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » النحل ١٠٣

قال محمد فريد وجدى فى تفسيره يشرح هذه الآية :

« اتهموا بهذا جبرا ويسارا ، وكانا من صناع السيوف بمكة ... كانا يقرآن التوراة والإنجيل ، وكان يمر بهما رسول الله يستمع اليهما . واتهموا عائشا غلام خويطب بن عبد العزى ، وقيل سلمان الفارسى . وقد غفلوا عن أن لسان الذى يلحدون اليه أعجمى لايحسن التعبير وهذا القرآن عربى مبين » أ هـ

٣ — لأن إعجاز الكتاب نابع مما فى آياته من ميزات موضوعية لا من جهل النبى الذى أنزل عليه ، فلو أن هذا القرآن أنزل على أعلم العلماء وأحكم الفلاسفة لما نقص ذلك شيئا من إعجازه

وأعتقد أن تخبط المفسرين فى تفسيراتهم يرجع الى ٣ عوامل :

١ — مغالاتهم فى التعويل على الاشتقاقات اللغوية ، ومن أمثلة ذلك تمييزهم بين كلمتى « نبى » و « رسول » على هذا الأساس اللغوى ، على حين أن اليهود والنصارى يطلقون كلمة « نبى » على جميع الذين أوحى اليهم من لدن آدم حتى يوحنا المعمدان (يحيى) ويطلقون كلمة « رسول » على الحواريين الذين أرسلهم عيسى (الرب يسوع) الى الأمم للتبشير به

=

« حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج [1] وهم من كل حَدَب ينسِلون » . الأنبياء ٩٦

= ٢ – قصور معارفهم فى الدين اليهودى ، فقد كان اليهود يتنفجون بأنهم شعب الله المختار ويسمون من عداهم بالأميين أى من ليسوا من أمة اسرائيل (شأنهم فى ذلك شأن العرب إذ يطلقون على غيرهم كلمة العجم) . وكذلك استعملت كلمة « الأميون » بمعنى الشعوب التى لم تنزل عليها كتب سماوية فهى فى مقابل كلمة « الكتابيون » التى تدل على الأمم التى جاءها أنبياء يحملون أسفارا ، ونرى الكلمتين إحداهما بإزاء الأخرى فى الآية :

« وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ... »

آل عمران ٢٠

٣ – أنهم لم يفطنوا الى أن الذين يجدون النبى مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل هم بنو اسرائيل سواء فى ذلك من بقى على دين اليهودية منهم ومن دخل فى الدين الجديد ، وهؤلاء هم الذين يدعوهم الله الى الإيمان به وبرسوله . النبى الأمى أى النبى الذى ينتمى الى أمة لا إسرائيلية لم تحظ قبل بكتاب منزل من عند الله .

(١) شط المفسرون فى تفسير كلمة « يأجوج ومأجوج » فقال النسفى : « هما قبيلتان من جنس الإنس يقال إن الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج » وقال البيضاوى : « قالوا إنهما قبيلتان من ولد يافث بن نوح وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل ، وهما اسمان أعجميان وقيل عربيان من أج الظليم إذا أسرع وأصلهما الهمز كما قرأ عاصم » اه .

وتفصيل الأمر – فيما نعلم – أنه كان يقطن البرارى الممتدة بين الكربات والدون قوم إيرانيو الأصل يدعون بالسيمريين ، وهم من البدو الرحل فيما عدا أولئك الذين أوطنوا بأودية الأنهار . وقد دهمتهم فى القرن السابع ق.م قبائل السكيثيين التى انحدرت عليهم من آسيا العليا وأجلتهم عن جانب من ديارهم وأشاعت الخراب والدمار فى بعض الربوع الأسيوية نحو سنة ٦٣٠ ق.م وذلك عند ما تبوأ يوشيا عرش يهوذا أو عقب ذلك بزمن يسير . وفى نحو سنة ٥١٢ ق.م فتح الملك دارا بلاد تراقيا وسار يتعقب السكيثيين حتى نهر الدنيستر . =

« قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا

وقد ابتكر النبى حزقيال (فى زمن السبى البابلى الذى بدأ سنة ٥٨٦ ق . م واستمر حتى سنة ٥٣٨ ق . م) كلمتى « جوج » و « ماجوج » يرمز بهما إلى أولئك الغزاة المخربين . وأغلب الظن أن اسم جوج يقصد به رجل معين أو شعب بأسره . وقد ورد هذا الاسم مرة فى التوراة على أنه اسم الولد الثانى ليافث بن نوح .

« بنو يافث جومر وماجوج و ... » . تكوين ١٠ : ٢ .

أما ماجوج فهو اسم البلاد وربما كان أصل الكلمة « مات جوج » ومات فى اللغة الأشورية تعنى أرض أو بلاد . قال حزقيال :

« وكان إلى كلام الرب قائلا يا ابن آدم اجعل وجهك على جوج أرض ماجوج ...

لذلك تنبأ ياابن آدم وقل لجوج . هكذا قال السيد الرب فى ذلك اليوم عندسكنى شعبى إسرائيل آمنين أفلا تعلم . وتأتى من موضعك من أقاصى الشمال أنت وشعوب كثيرون معك كلهم راكبون خيلا جماعة عظيمة وجيش كثير . وتصعد على شعبى إسرائيل كسحابة تغشى الأرض فى الأيام الأخيرة يكون . وآتى بك على أرضى لكى تعرفنى الأمم حين أتقدس فيك أمام أعينهم يا جوج » . حزقيال ٣٨ : ١ — ١٦ .

ووردت هذه الكلمة فى العهد الجديد أيضا ، فى رؤيا يوحنا اللاهوتى ، وهو سفر مفرط فى تهوده كتب بين سنتى ٩٣ م و ٩٦ م بأسلوب رمزى ولغته مستعارة من سفرى حزقيال ودانيال ، يزعم فيه كاتبه أنه رأى — فى منام موحى به — ملكا نزل من السماء وأمسك بالشيطان وغلله بالأصفاد فلبث يرسف فيها ألف سنة عادت فيها الحياة إلى أولئك الذين استشهدوا من أجل المسيح .

« ثم متى تمت الألف السنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض جوج وماجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر . فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة فنزلت نار من عند الله وأكلتهم . وإبليس الذى كان يضلهم طرح فى بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبى الكذاب وسيعذبون نهارا وليلا إلى أبد الآبدين » . رؤيا ٢٠ : ٤—١٠ .

يعنى أن الشيطان سيوسوس إلى أعداء اليهود فينصبون الحرب لبنى اسرائيل ويحصرونهم فى أول الأمر ويحصرونهم فى حاضرتهم أورشليم ، ولكن الله يأبى أن يدعهم طويلا فى محنتهم ولهذا يوقع بالأعداء الذين أغراهم الشيطان بشعبه المختار وينقذ شعبه بطريقة خارقة ، يشير بذلك إلى حصار جحافل تيطس لأورشليم وتدميرهم إياها سنة ٧٠ م ويتكهن بالاقتصاص من الرومان .

تخزونى فى ضيفى ... »[1] هود ٧٨ .

بَيْدَ أنّا نودّ أن يكون ملحوظا من بادىء الأمر أن دراسة الكتاب المقدّس يجب ألا تفتحَ الباب لمزيدٍ من الإسرائيليّات تقتحم علينا دينَنا ، بل — بعكس ذلك — أن تيسّر لنا تبيّن أُصول الإسرائيليات التى تشوب نقاءه ليسهُل علينا اجتثاثها من جذورها وتنقيتُه من تلك الشوائب وصهرُ قضاياها فى بُوتقة التحليل العلميّ ونَفْىُ الخبَث العالق بها من مخلّفات اليهوديّة .

---

(١) أخطأ بعض المفسرين فزعموا أن هذا العرض كان عرضا لنكاح شرعى ، جاء فى تفسير الجلالين : هؤلاء بناتى فتزوجوهن .

وبمراجعة القصة فى التوراة نرى أن المجال لم يكن مجال زواج بل مجال فسق وفجور ، فقد برز لوط إلى الجموع المخبولة التى تكتنف منزله وقال لهم يدافع عن كرم الضيافة :

« هوذا لى ابنتان لم تعرفا رجلا . أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن فى عيونكم . وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئا لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفى » .

تكوين ١٩ : ٨ .

وهذا المعنى واضح كذلك فى قصة مماثلة حدثت بعد ذلك بنحو سبعة قرون أو ثمانية :

« فخرج إليهم الرجل صاحب البيت وقال لهم لا يا إخوتى لا تفعلوا شرا . بعد ما دخل هذا الرجل بيتى لا تفعلوا شرا . بعد ما دخل هذا الرجل بيتى لا تفعلوا هذه القباحة . هو ذا ابنتى العذراء وسريته دعونى أخرجهما فأذلوهما وافعلوا بهما ما يحسن فى أعينكم . أما هذا الرجل فلا تعملوا به هذا الأمر القبيح » .

قضاة ١٩ : ٢٣ : ٢٤ .

. لقد أدلى الكثيرون من مشيخة المسلمين فى مناسبات شتّى بما يُنبئ بأنهم على بصر بدسيسة الإسرائيليات ، غيرَ أنهم لم يجاوزوا هذا الحدّ ، فلم يجرّد أحد منهم نفسه ويشمّرْ عن ساعده ليستخرجَ من جسم الدين تلك الزوائد التى نمت فيه وتضخمت حتى سترت بعض حقائقه ، وهكذا ظل هذا الواجب الجسيم مطروحا يرقُب من ينهض به .

لقد خُيِّل إلى بعض من أسلموا من اليهود أن ديننا استمرارٌ لدينهم ، فما زالوا بنا حتى خلطوا شعائرهم بشعائرنا دون الوقوف عندما ميّز الإسلام منها ، وفرضوا علينا أن نتّخذَ شريعتهم مصدرا من مصادر التشريع عندنا دون التفات إلى أن القاعدة القائلة بأن « شَرْع مَن قَبْلَنَا شرع لنا » إنما تمضى حيث « لم يرد نكير » . وكلمة من قبلنا فى هذا المقام إنما يراد بها اليهود وحدهم ، إذ أن الديانة المسيحيّة تكاد تكون خِلْوا من التشريع . وقد باركت المسيحيّةُ شريعةَ اليهود ولم تنسخ من أحكامها غيرَ القليل[1] .

ثم إنهم وسّعوا نطاق « السُّنة » وكانت تُستَمدُّ من قول الرسول العربىّ أو من عمله أو من إقراره فأباحوا حِماها وأولجوا

(١) من تلك الأحكام التى نسخت إباحة الطلاق وحظر العمل أيام السبت وتحريم أكل الحيوانات التى يعدها اليهود نجسة وهى الجمل والأرنب والخنزير والأسماك التى لا قشور لها الخ .

فيها ما كان من عمل أنبيائهم وأحبارهم مما لم يُقرّه الرسول قولا أو عملا ، وأطلقوا على تلك السُّنَن العبرية « سُنَن الفِطرة »

الختان

وهكذا سنّ العبريون علينا سُنَّة الختان ، فجعلنا منذ قرون نمارس هذا الخِصاء الجزئيّ باسم « الطهارة » ونكابد عند إجرائه ألما مُمِضّا ونتعرض لأخطار معروفة من قديم الزمان (١) ، ثم يعتورنا من جرّائه شعور مخجل بفتور الحمِيّة الجنسيّة (٢) . فيعمِد بعضُ الجاهلين إلى العياذ من هذا التبلُّد الطارىء عليهم بتعاطى العقاقير المخدِّرة واصطناع الأوضاع المنحرفة .

---

(١) قال أبو عثمان عمرو الجاحظ (وقد توفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ) فى كتابه « الحيوان » :

« زعم ناس من أطباء النصارى ... أنهم قد رأوا من أولاد المسلمين والنصارى مالا يحصى ممن لقى المكروه فى ختانه :

١ — من ريح الحمرة (وهى داء يعترى الناس) .

٢ — ومن قطع طرف الكرة (أى الحشفة) .

٣ — ومن أن تكون الموسى حديثة العهد بالإحداد وسقى الماء فتشيط عند ذلك الكرة ويعتريه برص ، إلا أن ذلك البرص لا يتفشى ولا يعدو مكانه وهو فى ذلك كنحو البرص الذى يكون من الكى وإحراق النار فإنهما يفحشان ولا يتسعان .

والصبى ابن ثمانية أيام أعسر ختانا من الغلام الذى قد شب وشدن وقوى » .

(٢) قال الجاحظ « والبظراء تجد من اللذة مالا تجده المختونة ، فان كانت مستأصلة مستوعبة كان على قدر ذلك ... فان شهوتها إذا قلت ذهب التمتع ونقص حب الأزواج ، وحب الزوج قيد دون الفجور » .

وقد انتحل العبريّون لهذه السُّنّة الإسرائيلية من الأحاديث المكذوبة ما يعزّزونها به :

روى ابن وهب عن.... عن ... عن رسول الله ص أنه قال .

« الفطرة خمس : الاختتان والاستحداد [١] وقصّ الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط [٢] »

ونسبوا إلى ابن عباس أنه لم يقنع بأن يكون للاختتان من جلالة الخطر مثلُ ما لقصّ الشارب وتقليم الأظفار ، فعمَد إلى الآية .

« وإذ ابتلى ابراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمّهن ... »

البقرة ١٢٤

ففسّرها بقوله : ابتلاه بالطهارة . خمس فى الرأس وخمس فى الجسد . فى الرأس قصّ الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس ، وفى الجسد الاختتان وتقليم الأظفار وحلق العانة ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء .

وفسّر بعضُهم قولَه تعالى :

«ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفا » النحل ١٢٣

(١) الاستحداد : الحلق بالموسى .

(٢) الجزء الثالث من صحيح مسلم بشرح النووى .

بأن ذلك يوجب الختان على محمد وأتباعه .

وقد علّق الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت على تفسير هذه الآية والآية السابقة بقوله : وهذا إسراف فى الاستدلال ، غاية ما قوبل به عدم التسليم له .

وخشِىَ مروّجو الإسرائيليات أن يتبادر إلى أذهان المسلمين هذا السؤال : اذا كان الختان فرضا على المسلمين أو — فى الأقلّ — عملا مرضيًّا عنه من رب العالمين فكيف فات النبىّ أن يدعَ القومَ يُجْرون له هذا المنسك ؟

وقد أجمعوا الرأى على أن ذلك لم يفته فقد خُتن يقينا ، أما متى وأين وكيف فقد تباروا فى سبيل الإجابة عنها ، كلٌّ على ما خيّلت . وانجلت المباراة عن ثلاثة آراء ليس وراءها جديد لمستزيد .

الرأى الأول ، وهو أيسرها جميعا ، أن النبىّ قد ختنه جَدُّه ، وإذا كان بين المعاصرين يومئذ من يستريب فى ذلك فسيزول بزوال جيلهم كل ريب . .

وهكذا زعم ابن عباس ، أو بالأحرى المتحدّثون باسمه[1] « أن عبد المطلب ختن النبيّ ص يوم سابعه وجعل له مأدُبة وسمّاه محمدا »[2] .

وهو خبر لم يرضَه المتقدِّمون ولم يَسلَم من نقدهم وهم صيارفة الحديث وجهابذته . قال أبو عمر : هذا حديث مسند غريب .

والرأى الثانى ، أن ختانه لم يكن بأيدى الناس بل بأيدى الملائكة .

نقل لنا الجزء الأول من البخارى مما رُوى فى تأييد هذا الزعم أن ابن الناظور ، وكان سُقُفًّا على نصارى الشام ، ذكر أن هرقل حين قدِم إيليا أصبح يوما خبيث النفس ، فقال

---

(١) لما تأسست الدولة العباسية جعل بعض المحدثين يسندون ما يروون من الأحاديث النبوية إلى عبد الله بن عباس تملقا للحكام وإكسابا للأحاديث المروية وجاهة وقوة ، وبذلك تكدست حول اسمه — برأه الله مما قالوا — أكداس من الأحاديث الموضوعة والروايات المريبة والتعاليم الفاسدة، تروج كثرتها مزاعم اليهود .

(٢) ويلاحظ هنا أن الختان أجرى للنبى بعد ولادته بأسبوع وأن تسميته باسمه تلت ذلك مباشرة ، وهذا قوى الشبه بما هو معهود من تقاليد اليهود وبما عزاه لوقا ، تبعا لذلك ، إلى السيد المسيح .

« ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سمى يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به فى البطن » . لوقا ٢ : ٢١ .

بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك . قال ابن الناظور : وكان هرقل حزّاءً (١) ينظر فى النجوم ، فقال لهم حين سألوه إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم مَلَكَ الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة ؟ قالوا ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنّك شأنُهم واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود ، فبينما هم على أمرهم أُتِيَ هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ، فلما استخبره هرقل قال اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا . فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن ، وسأله عن العرب فقال هم يختتنون ، فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر .

ونقل المقريزىّ (٢) أن بعضهم يقولون إن جبريل عليه السلام ختنه لما طهّر قلبه الشريف (٣)

---

(١) حزى الطير : زجرها وساقها . الحازى : الذى ينظر فى الأعضاء وفى خيلان الوجه يتكهن ومنه قولهم « على الحازى هبطت » أى على الخبير بالأمور .

(٢) فى كتابه « إمتاع الأسماع » .

(٣) ذكر ابن هشام فى الجزء الأول من سيرته أن ابن أسحق (ولد سنة ٨٥ هـ وتوفى سنة ١٥٥ هـ) قال :

حدثنى . . . عن بعض أهل العلم ، ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعى ، أن نفرا من أصحاب رسول الله (ص) قالوا له يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال نعم : أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى ، ورأت أمى حين=

وهذا الرأى ، القائل بأن النبىّ خُتن بأيدى الملائكة ، ينطوى على معجزة إسرائيلية الطراز افتُريت على النبىّ العربىّ الذى أيّده الله بخير معجزة وهى القرآن الكريم ، يصدع بآياته البيّنات صفوف المتشككين ويسلُب ألباب المفكرين بما يحتويه من بيان ساحر وما يُوقعه من موسيقى مذهلة وما ينشره من حكمة عميقة دون أن يكون النبىّ ص بحاجة إلى اصطناع الأعاجيب والإتيان بمثل ما يأتى به اللعّابون من ألاعيب .

والرأى الثالث من ابتداع كعب الأحبار أشهر مُسلمة اليهود ، وفحواه أن النبىّ وُلد مختونا .

= حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام. واسترضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا ثم أخذانى فشقا بطنى واستخرجا قلبى فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ثم قال زنه بمئة من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ثم قال زنه بألف من أمته فوزننى بهم فوزنتهم فقال دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها » .

وهذه الحادثة رواها الطبرى مرتين إحداهما على أنها حدثت فى طفولة النبى حين كان عمره لا يتجاوز عامين والأخرى على أنها حدثت قبيل البعث وسنه أربعون سنة .

وذكر الدكتور محمد حسين هيكل هذه الحكاية فى كتابه « حياة محمد » بعنوان « أسطورة شق الصدر » وقال إن المستشرق إميل درمنجم يرى أن هذه الحكاية قد لفقت لإيجاد تفسير مادى مجسم لسورة الشرح :

« ألم نشرح لك صدرك ... » .

قال أبو الفرج الجَوزيّ (١) : حُدِّثت عن كعب الأحبار قال : خُلق من الأنبيَاء ثلاثةَ عشر مختونين : آدمُ وشيثٌ وإدريسُ (٢) ونوحٌ وسامٌ ولوطٌ ويوسُفُ وموسى وشعيبٌ وسليمانُ ويَحيى وعيسى والنبيُّ ص (٣) .

ويلاحظ أن الستة الأُوَل من أولئك الأنبياء عاشوا قبل اشتراع شِرعة الختان ، وأن يحيى لم يأخذ بهذا التقليد ، وأن الأناجيل الأربعة لم تذكر من أمر ختان عيسى غير تلك الجملة التي يشوبها الغموض وقد انفرد بذكرها إنجيل لوقا (٢ : ٢١) .

وذكر أبو نُعَيم الحافظ (٤) بإسناده أن النبيّ ولد مختونا ، وهكذا تعدّدت المسالك فاختلفت الروايات فى أمرٍ ما كان يجوز أن تختلف فيه .

---

(١) الجزء الثالث من صحيح مسلم بشرح النووى . باب خصال الفطرة. وذكره البخارى أيضا فى كتاب اللباس .

(٢) هو المذكور فى التوراة باسم أخنوخ . وعند اليهود والنصارى أنه لم يمت على ظهر الأرض ولم يدفن فى بطنها بل رفع إلى السماء حيا .

« وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه » .

تكوين ٥ : ٢٤

(٣) قال الجاحظ : لم يولد صبى مختون قط أو فى صورة مختون . وناس يزعمون أن النبى وعيسى ولدا مختونين . والسبيل فى مثل هذا الرجوع إلى الرواية الصحيحة والأثر القائم .

(٤) فى كتابه « الحلية » .

وليت هؤلاء الذين ساروا فى إثر اليهود وقفوا حيث وقف أولئك ، فاقتصروا على ختنِ الذكر دون خفض الأنثى ، لا بل لقد شطُّوا فى الحَيْدة عن الطريق السوىّ وأبعدوا فى المسير فعمّموا هذه الجراحة بين الجنسين معا (١) ولم يتورّعوا — كدأبهم — عن اختلاق الأحاديث المكذوبة والروايات الملفّقة يؤيدون بها دعاواهم ذكر الطبرىّ أن الحجاج بن أرطاة ، وهو ليس ممّن يُحتَجّ بهم ، روى عن ...عن... أن رسول الله ص قال « الختان سُنّة للرجال مكرُمة للنساء » (٢)

---

(١) نقل ابن جرير الطبرى فى الجزء الأول من كتابه « تاريخ الأمم والملوك » عن عن ... عن السدى أنه قال : إن اسحق لما كبر اقتتل هو وإسماعيل فغضبت سارة على أم إسماعيل وتولتها الغيرة فأخرجتها ، ثم إنها دعتها وحلفت لتقطعن منها بضعة (بفتح الباء) فقالت أقطع أنفها وأذنها فيشينها ذلك ثم قالت لا بل أخفضها فقطعت ذلك منها ، فلذلك خفضت النساء .

وشبيه بهذا ما ذكره الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء ، قال :

وفى إنجيل برنابا أن سبب الختان أن آدم لما عصى ربه نذر أن يقطع من نفسه عضوا إذا تاب الله عليه ، فلما قبلت توبته وأراد الوفاء بنذره احتار ماذا يصنع ؟ فدله جبريل على هذا الموضع فقطعه . ولعل أبناءه تركوا هذه السنة حتى أمر الله إبراهيم باحيائها .

(٢) وكذلك رواه ابن حنبل فى الجزء الخامس ص ٧٥ .

وروى فى الجزء الثالث ص ٤١٥ قوله : ألق عنك شعر الكفر واختتن .

وقد انتهت الحكومة المصرية أخيرا إلى إبطال ختان النساء بعد أن ثبت لديها أنه يورثهن إرهاقا ويوسعهن إيذاء ، وبعد أن استبان لها أن تَرْكَ هذه الجراحة جُملةً :

« أنضر للوجه وأحظى عند الزوج »[1] .

لقد نشأت المسيحية على أنها نِحلةٌ يهوديّة، وكان الختان مفروضا على اليهود ومِن بعدِهم على المسيحيين ، فلما جاء القديس بولس وضع هذا الإصْر عمن دخل النصرانيّة من غير الإسرائيليين وأعفاهم من تجشُّم هذه الجراحة المقبوحة .

« دُعي أحد وهو مختون فلا يَصِر أغلف . دعي أحد فى الغُرْلة فلا يختتن . ليس الختان شيئا وليست الغُرلة شيئا بل حفظ وصايا الله » .

١ كورنثوس ٧ :١٨-١٩

أما المتزمّتون من مشايخ المسلمين فإنهم بخلاف ذلك قد استحّبوا فى الرجل الكبير يسلم أن يختتن

٥

ولقد رجَعنا إلى أصل شعيرة الختان ، فإذا هى شعيرة همجيّة شُرعت فى العصر الحجريّ حين كان الناس فى غَيابة

---

(١) زعموا أن النبى (ص) مر بخاتنة معروفة تخفض إحدى الصبايا فقال لها : « يا أم عطية . أشميه (أى خذى منه قليلا) ولا تنهكيه ، فانه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج » .

الجهل لم يبلغوا من الرقّ أن يعرفوا النُّحاس والحديد فكانوا يتخذون لهم سكاكين من الظِّرّان (١)

« فصنع يشوع سكاكين من صوّان وختن بنى اسرائيل فى تلّ القُلَف ».

يشوع ٥ : ٣

ولقد عرَفت الختانَ فيما مضى شعوب وقبائلُ وثنيّة شتّى .

ذكر الطبرىّ فيما خبّر به عن غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم هوازنَ بحُنين :

« والاختتان من العادات القديمة الشائعة بين العرب الجاهليين الوثنيين . أما العرب النصارى فلم يكونوا يختتنون فالحنفاء (٢) فى هذه العادة والوثنيون سواء » .

وفى أخبار معركة حُنينٍ أن الأنصار حينما أجهزوا على

---

(١) الظر (بالكسر والتشديد) : حجر له حد كحد السكين ج ظران .

(٢) هم فرقة من العرب نزعت الى الزهد وصدفت عن عبادة الأصنام، وقد نشأت بتأثير اليهودية والنصرانية غير أن أصحابها لم يكونوا يهودا ولا نصارى . وقد عدهم بعض المستشرقين شيعة من شيع النصرانية .

نقل « بلوغ الأرب » عن الأخفش أنه قال : « كان يقال فى الجاهلية لمن اختتن وحج البيت حنيف لأن العرب لم تتمسك فى الجاهلية بشىء من دين ابرهيم غير الختان والحج فكل من اختتن وحج قيل له حنيف . فلما جاء الإسلام تمادت الحنيفية فالحنيف المسلم »

قتلى ثقيفٍ ممن سقطوا فى هذه المعركة مع هوازن وجدوا عبدًا عندما كُشف ليُستلَبَ ماعليه وجد أغْرل ، فلما تبيّن ذلك للأنصار نادى أحدُهم بأعلى صوته : يعلم الله أن ثقيفًا غُرْل ماتختتن . فقام إليه المغيرة بن شُعبة ، وهو من ثقيف ، فأخذ بيده وخشِى أن يذهب ذلك عن قومه فى العرب ، فقال له : لاتقل ذلك فِداك أبى وأمى ، إنما هو غلام لنا نصرانىّ ، ثم جعل يكشف له قتلى قومه ويقول : ألا تراهم مختتنين ؟ »

نقل الدكتور «جواد على»هذه النّبذة فى الجزء السادس من كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » المطبوع بمطبعة المجمع العلمى العراقى ببغداد وعلق عليها بقوله :

«يتبين من هذا الخبر أن العرب كانوا يعُدّون الغَرَل شيئا معيبا ومنقصة تكون حديث الناس ، وهناك خبر آخر يفيد أن العرب جميعا كانوا يختتنون وأن الاختتان كان من السّمات التى تميّزهم عن غيرهم وأنهم فى ذلك كاليهود [1] ، وقد ورد فى الموارد اليهودية ، كما أشرت فيما سلف، مايفيد

---

(١) الأغانى . فى ذكر أبى سفيان وأخباره ونسبه

اختتان العرب ، ولعل التوراة التى ذكرت قصة اختتان اسماعيل[1] أخذت خبرها هذا من تقاليد العرب الشماليين التى كانت شائعة بينهم فى ذلك العهد » اهـ

وتتحدّث السجلات المصرية القديمة عن دم سال من قضيب « رعْ » عندما أحدث لنفسه هذا النوع من البتر . وورد فيما دوّنوه فى السنة الرابعة والأربعين من حكم رمسيس الثانى[2] ذكرٌ لليوم الذى كان الرجال يأتون فيه لإجراء هذه الجراحة حتى يتخلّصوا من دناستهم بين يدَى معبودهم آمون .

ويقول العهد القديم إن بنى اسرائيل كانوا يَختتنون وهم فى مصر .

«إن جميع الشعب الخارجين من مصر الذكور جميع رجال الحرب ماتوا فى البرّية على الطريق بخروجهم من مصر . لأن جميع الشعب الذين خرجوا كانوا مختونين » . يشوع ٥ : ٤ ــ ٥

(١) فلهوزن

(٢) المتوفى فى نحو سنة ١٢٣٧ ق.م .

مما يحمل على الاعتقاد أن الختان تقليد مصرى[1] نقله اليهود عن مصر وأدرجوه فى ديانتهم كما أدرجوا فيها ذبح الحيوان بالطريقة المعروفة وبأيدى الموطنين (لا الأجانب) وتحريم لحم الخنزير الخ الخ وكلها أشياء يرجع الأمر فيها إلى مصرَ مهدِ الحضارة البشرية .

والمقصود بالختان عند بنى اسرائيل أن يذكّرهم فى كلّ لحظة أن إلههم يهوه صكّ لهم عهدا بتمليكهم فِلَسطين وتوريثهم مابين النيل الكبير والفرات الصغير من أراض وأصقاع .

---

(١) ذكرت دائرة المعارف الإسلامية للبستانى فى مادة الختان :

١ — أن الختان فيما ذكره هيرودتس ، كان جاريا عند المصريين وأهل الحبشة .

٢ — وأن فيثاغورس ، فيما يقال ، قد اختتن ليتسنى له تحصيل العلوم المصرية الدينية على أيدى الكهنة المصريين .

٣ — أن الختان بين المصريين فى العهود التى خضعت فيها مصر لسطوة الفرس واليونان كان مقصورا على الكهنة والحكماء .

٤ — أن بعض الفينيقيين كانوا يختتنون خلافا للفلسطينيين .

٥ — أن برناباس ذكر فى رسالة له شيئا عن ختان المصريين والعرب والسوريين

٦ — أن أبرونيموس ذكر أن أكثر المصريين والأدوميين والعمونيين والموآبيين والإسماعيليين كانوا يختتنون فى أيامه .

« فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام[١] ميثاقًا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » .

تكوين ١٥ : ١٨

ولقد وقّع خليل الله[٢] إبرهيم هذه الوثيقة باسم العبريين وهو فى التاسعة والتسعين من عمره الطويل . لم يوقّعها بمداد الحبر بل بدم الختان ، فالختان تذكِرة للعبريين بحِلْف افتراه أوائلهم على الله ليُذْكوا فى أنفسهم الحَمِيّة العنصريّة والعصبيّة الدمويّة المغلَقة عليهم ، وقد أريد به أن يكون حافزا لهم إلى الانقضاض على جيرانهم العرب بين

(١) يتكون اسم « أبرام » من كلمتين عبريتين هما « أب » بمعناها فى العربية و « رام » بمعنى المبجل أو الأعلى ، ومن ثم يكون « تارح » قد أسمى ابنه « ابرام » أى الأب الأعلى لأنه — فيما يبدو — كان يتوقع لابنه أن يؤسس أسرة تنتظم أنبياء الأديان السامية الثلاثة تظل قابضة على صولجان النبوة حتى يقبض خاتم الأنبياء .

وقد بدا ليهوه فيما بعد فغير اسم نبيه وجعله « ابرهيم » .

« فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبرهيم لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم وأثمرك كثيرا وأجعلك أمما . وملوك منك يخرجون » .

تكوين ١٧ : ٥-٦ .

والمقطع « يم » الذى أضيف إلى اسم أبرام أو أبراهام هو علامة صيغة الجمع فى لغتهم ، ومن ثم كان الأسم الجديد « ابرهيم » يحمل فى طياته دعاوة إسرائيلية .

(٢) « فآمن إبرهيم بالله فحسب له برا ودعى خليل الله » .

يعقوب ٢ : ٢٣ .

« واتخذ الله إبرهيم خليلا » النساء ١٢٥ .

الحين والحين واصطلامهم فريقاً بعد فريق على النحو الذى خبَرْناه منهم فى «دير ياسين» .

«لاأطردهم من أمامك فى سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة فتكثر عليك وحوش البرية . قليلا قليلا أطردهم من أمامك إلى أن تثمر وتملك الأرض» . خروج ٢٣ : ٢٩–٣٠

وإنه لمن الغفلة ونحن نرى أثر هذه الأسطورة فى قلوبهم وسريان هذا الأثر فى دمائهم وتغلغله على مضىّ السنين فى قلوبهم ، واستمرار الدجاجلة منهم فى الانتفاع بها لإثارة الجماهير وتألیب العامّة للعدوان على أراضٍ لا حقّ لهم فيها .

«وأعطيتكم أرضاً لم تتعبوا عليها ومدناً لم تبنوها وتسكنون بها ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون» .

يشوع ٢٤ : ١٣ – تثنية ٦ : ١٠ – ١١

من الغفلة أن نتابعهم على إحياء شعيرة الختان وهى شعيرة أجنبية عنا معادية لنا ضارّة بنا ، وحسبُنا أن الذكر الحكيم لم يفرضها علينا أو يرغبنا فيها [1] أو يتحدّث عنها

(١) قال الشيخ السيد سابق فى ص ٥٦ من كتابه « فقه السنة » المطبوع سنة ١٩٥٠ عن الختان :

« ولم يرد تحديد وقت له ولا ما يفيد وجوبه » .

حتى فيما يتّصل بعيسى ومَن سبقه من أنبياء بنى إسرائيل مبتدعى هذه البدعة ، وأن الرسول الكريم لم يمارسْها أو يحضّ عليها [1] ، وأن الذين يعوّل عليهم من كتّاب السيرة كابن إسحق وابن هشام قد عفّوا عن ذكر هذه الضلالة ، فهل يقال بعد ذلك إن الختان سُنّة على المسلمين ؟

اليكم فُتيا الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت [2] :

« والذى أراه أن حكم الشرع فى الختان لايخضع لنصٍّ منقول وإنما يخضع فى الذكر والأنثى لقاعدة شرعية عامّة وهى أن إيلام الحىّ لايجوز شرعاً إلا لمصالح تعود عليه وتربو على الألم الذى يلحقه »

إلى أن قال : « وقد خرجنا من استعراض الروايات فى مسألة الختان على أنه ليس فيها ما يصحّ أن يكون دليلا على « السّنّة الفقهية » فضلا عن « الوجود الفقهىّ » وهى النتيجة التى وصل إليها بعض العلماء السابقين ، وعبّر عنها بقوله : ليس فى الختان خبر يُرجَع إليه ولاسُنّة تتّبع » .

(١) قال ابن حنبل فى ص ٢١٧ من الجزء الرابع :
« دعى عثمان بن أبى العاص إلى ختان فأبى أن يجيب ، فقيل له فقال :
إنا كنا لا نأتى الختان على عهد رسول الله ، ولا ندعى له » .

(٢) كتاب « الفتاوى » طبع الجامع الأزهر سنة ١٩٥٩ .

وقال :

وكلمة «سُنّة» الواردة فى بعض الروايات معناها ، إذا صحّت ، الطريقة المألوفة . ولم ترد الكلمة على لسان الرسول بمعناها الفقهى الذى عُرفت به فيما بعد » إهـ .

وقُصارَى القول أن الختان إن هو إلا ضلالة مؤذية دسّها علينا أحبارُ بنى إسرائيل ، وقد آن لنا أن نطهِّر ديننا وتقاليدنا من الأدران التى شابهما بها أحبارُ بنى إسرائيل . وقمين بنا أن نُعفِىَ أفلاذَ أكبادنا من هذه الجراحة الهمجيّة التى سنّها برابرة العصر الحجرىّ مِن بنى إسرائيل ومن لَفَّ لفّهم فى هذا السبيل .



البتر الجنسىّ

باسم الانسانية

أقلِعوا عن الختان

In the Name of Humanity

By

Joseph Lewis

إيمان البدائيين بنجاسة الدم

كان العبرىُّ البُدائىّ يَفرَق من الدم ويُشفق أن تَعلَقَ به منه نجاسة ، فكان إذا مسَّ هذا العنصرَ الغامض الذى ينطوى على الشرّ حرَص على أن يتطهّر من دنسه درْءًا لما يُصيبه من أذاه . ولقد أبعد فى الهلع منه وأمعن فى التكفير عنه بأعمال قاسية بالغة القسوة أصبحت على الزمن مناسكَ عبادة ، ومن ثَم تطرّق شىء من ذلك إلى الحضارة الحديثة .

وإنما حُرّم على اليهود أكلُ الدم لأن الدم فى عُرفهم هو الحياة .

«لكن احترز أن لا[1] تأكل الدم لأن الدم هو النفس ، فلاتأكل النفس مع اللحم »[2]

تثنية ١٢ : ٢٣

---

(١) كلمة « لا » هنا زائدة لا تعنى النفى كما هى الحال فى الآية :
« قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » . الأعراف ١٢ .

(٢) هذه الترجمة معيبة والترجمة الصائبة هى :
ولكن إياك وأكل الدم فان الدم هو الحياة وليس لك أن تأكل الحياة مع اللحم .

وامتثالا لهذا النهى يزورّ المتزمّتون من اليهود المحدَثين عن كل لحم غير لحم « الكاشير »، وهو يجهّز بأن يُذبح الحيوان ويُستنزَف من جسمه الدم إلى آخر قطرة ويُنقع اللحم فى الماء مدة لاتقلّ عن نصف ساعة ثم يملّح ويوضع فوق نَضَد أو لوح من الخشب نصفَ ساعة آخر حتى لايبقى شك فى أنه قد صفا تماماً من الدم ، ثم تُزال منه جميع الأوعية الدمويّة ، ومن أغفل ذلك فقد انتهك حرمة الآية « لاتأكل النفس مع اللحم » .

ومافتىء الإسرائيليون يتلُون عند ذبح الحيوان صلاةَ استعطاف تَجنُبهم إثمَ إهراق الدم ، وذلك أمر هيّن بالقياس إلى ما كان يتّبعه أسلافهم فيما غبر ، إذ يَمضون بالحيوان إلى المذبح فيتولى الكاهن بنفسه ذبحه وإقامةَ منسك التضحية بجعل الدم يسيل على المذبح .

وهذه السُنّة القائمة على الوساوس والأوهام مثال للجهل الجسيم الذى كان يَرين (١) على عبريي الكتاب المقدّس

(١) ران هواه على قلبه : غلب فيه .

فيما يتّصل بشؤون الصحّة العامّة [١] وبالقيمة الغِذائية للطعام .

وتحتوى المزامير على صلاة للخلاص من عقاب إثم الدم « نجّنى من الدماء يا الله اله خلاصى فيسبّح لسانى برّك » .

مزامير ٥١ : ١٤

وليس إثم الدم يعنى القتل وإنما يراد به التنَجّس بالدم دون القيام بما يترتّب على ذلك من تكفير .

لقد عجز الإنسان البُدائىّ عن أن يجدَ إيضاحاً لما ينثال عليه من مظالمَ ومصائب وما يصادفه فى طريق الحياة من عراقيلَ ومصاعب ، وكان منتهى ما تفتّق عنه ذهنُه أن ذلك إنما هو « عقاب على إثم » وقُصارَى ما اهتدى إليه من حلٍّ لمشكلته إنما هو استرضاء الإله الغضوب ليتجاوزَ عن إثمه . وهكذا انبثقت فى ذهن ذلك الموزور [٢] كلمة « الإثم » .

وقد غالى القوم فى مخاوفهم وشطّوا فى « تابواتهم » [٣] وجعلوا منها سُنَنًا دينيّة تهيمن على حياتهم ، وزَيّنت لهم

---

(١) إن اعتقادهم أن الدم نجس يجعل نقل الدم من امرىء إلى آخر من المحرمات وبذلك تتعرض حياة الجرحى من الجنود وغيرهم لخطر الموت .

(٢) الموزور : المرتكب الإثم و — الذى رمى بالوزر .

(٣) يطلق أهل بولنيزيا لفظ تابو tabu على ما تحرم تقاليدهم السحرية (الدينية) عليهم مسه من الأشياء بسبب قداستها أو نجاستها .

وساوسُهم وأوهامهم أنه ما من سبيل إلى رضا الله عنهم غيرُ التضحية المصطبغة بالدم المصحوبة باصطلاحات سحريّة .

وإليكم بياناً مفصّلا بطريقة القيام بذلك .

«يقدِّم الثورَ إلى باب خيمة الاجتماع أمام الرب ويضع يده على رأس الثور ويذبح الثور أمام الرب . ويأخذ الكاهن الممسوحُ من دم الثور ويدخل به إلى خيمة الاجتماع . ويغمس الكاهن إصبعه فى الدم وينضح من الدم سبع مرات أمام الرب لدى حجاب القدس . ويجعل الكاهنُ من الدم على قرون مذبح البخور العطِر الذى فى خيمة الاجتماع أمام الرب . وسائر دم الثور يصبّه إلى أسفل مذبح المُحرقة الذى لدى باب خيمة الاجتماع . وجميع شحم ثور الخطيّة ينزعه عنه : الشحم الذى يغشّى الأحشاء والكُليتين والشحم الذى عليهما الذى على الخاصرتين وزيادة الكبد مع الكليتين ينزعها كما تُنزع من ثور ذبيحة السلامة ويوقدهن الكاهن على مذبح المحرقة . وأما جلد الثور وكل لحمه مع رأسه وأكارعه وأحشائه وفرثه فيُخرِج سائر الثور إلى خارج المحلة إلى مكان طاهر إلى مرمى الرماد ويحرقها على حطب بالنار . على مرمى الرماد تحرَق » . لاويون ٤ : ٤ — ١٢

هذه التضحية هى محاولة من الإنسان البُدائىّ لتقليل مايعانيه من مصاعبِ الحياة ، معتمدًا فى ذلك على عباراتٍ اصطلاحية سحرية .

ولقد نهى «يهوه» إلهُ بنى اسرائيل عن قَبول الدِّيَةِ لقاء دمْ القتيل لتعذّر التطهّر من الدم المسفوك .

«لاتدنّسوا الأَرض التى أنتم فيها لأن الدم يدنّس الأَرض. وعن الأَرض لا يكفّر لأَجل الدم الذى سفك فيها إلا بدم سافكه . ولا تدنّسوا الأَرض التى أنتم مقيمون فيها التى أنا ساكن فى وسطها . إنى أنا الرب ساكن فى وسط بنى إسرائيل» عدد ٣٥ : ٣٣ ـ ٣٤

لقد استبدّ الفزعُ من الدم بعبريِّى الكتاب المقدس .

«وكلم قايين هابيل أخاه . وحدث إذ كانا فى الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله . فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك ؟ فقال لا أعلم . أحارس أنا لأَخى ؟ فقال ماذا فعلت ؟ صوت دم أخيك صارخ إلىّ من الأَرض ، فالآن ملعون أنت من الأَرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك . متى عمِلتَ الأَرض لاتعود تعطيك قوّتها . تائها وهاربا

تكون فى الأرض . فقال قايين للرب : ذنبي[١] أعظم من من أن يُحتَمل » .

تكوين ٤ : ٨ – ١٣

هاهو ذا دمُ أخيه على الأرض يصرخ ويدنّسها فيجعلها تُضرِب عن إخراج ثمرها ، وها هو ذا شبح القتيل يوشِك أن يتعقّب القاتل فيجأر القاتل بالاستغاثة ويقول مبتهلا :

« إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائهاً وهارباً فى الأرض فيكون كل من وجدنى يقتلنى » .

تكوين ٤ : ١٤

ومما يدلّ على دناسة الدم ماورد فى الإصحاح التاسعَ عشرَ من سفر التثنية من ضرورة تخصيص مدن يلجأُ إليها الذين يقع منهم القتل خطأً وذلك حتى لا ينتقم منهم أهل المجنيّ عليهم ، وبذلك تُستَنقَذ القبيلة من لعنة التلوّث بإثم الدم ، وقد ورد فى الإصحاح الثامن والعشرين من سفر أخبار

(١) أخطأ المترجمون هنا أيضا فأوردوا كلمة « ذنبي » بدلا من « عقابى » وهى فى الترجمة الإنجليزية my punishment يريد القول إن هذا العقاب الذى اقتضته مشيئة الله أعظم من أن يطيقه إنسان .

الأيام الأول أن الربّ أبى على نبيّه وصفيّه داود أن يبنى بيت الله ، وترك هذا العمل الجليل لسليمان ابنه لأن داود لجّ فى سفك الدم ولم يكفّر عن ذلك تكفيرًا كافيًا .

« ولكن الله قال لى لاتبنى (١) بيتًا لاسمى لأنك أنت رجُل حروب وقد سفكت دما » . ١ أخبار ٢٨ : ٣

وقد كان كهنة العبريّين لايسفكون الدم إلا لغرض التضحية ، على أن يكون ذلك مصحوباً بالصلاة .

وكان القوم يعتقدون أنه كلما عظُمت تضحيتهم كان غفران الرب لهم أعظمَ وإنعامُه عليهم أسبغ ، فكانوا يَهَبون له أبكارهم . وكانت التضحية بالدم تلى عندهم التضحيةَ بالنفس فى جليل خطرها لأن الدم هو الحياة ، ومن ثم أصبحوا يجتزئون بالدم رمز الحياة عن الحياة نفسها(٢)

(١) الصواب : لاتبن .

(٢) وقد نقل هذا التابو إلى المسيحية . انظر إلى قول المسيح :

« هذا هو دمى الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين » .

مرقس ١٤ : ٢٤ .

ومن ثم كان رجال الكهنوت المسيحى يحرقون المراطقة إحراقا تجنبا لإراقة دمائهم إذ أن الأيدى التى توزع دم الحمل ، أى المسيح ، ينبغى عندهم ألا تدنس بدماء أولئك الذين يسفك دم الحمل لخلاصهم .

وقد كان القدماء يمزجون دماءهم فى المبايعات والأعراس وما إلى ذلك ، وكان ذلك يورثهم اطمئنانا ، إذ أنه عندما يختم اتفاق ما بالدم يصبح الله شهيدا على مايقولون.

وأصبح الختان علامة أو رمزا للمعاهدة التي بين القبيلة وربّها .

«وأخذ موسى الدم ورشّ على الشعب وقال . هو ذا دم العهد الذى قطعه الرب معكم على جميع هذه الأحوال » .

خروج ٢٤ : ٨

ونمت الوساوس والأوهام فى رءوس القوم ، وتفاقم عندهم أمرُ النجاسة الناجمة عن سفك الدم حتى أصبحت تقتضيهم تكفيرًا منسكيًا .

وكانوا يعتقدون أن رُوح القتيل تتعقّب القاتل ولا تنفكّ تلاحقه وتجدّ فى أثره حتى تغيّبه فى رَمسه . وكان المحارب الذى لم يتطهّر مما علِق به من الدم يُعَدّ « تابو » وذلك حتى لايحمل معه دماء قتلى العدوّ إلى عشيرته فيتوح لأرواحهم أن تقتصّ لهم منها .

وقد يسائل المرءُ نفسه : كيف يكون الإيمان بنجاسة الدم مسئولا عن منسك البتر الخاصّ بالختان ؟ وهذا ما يقدم الكتاب المقدّس نفسُه الدليلَ على صحّته .

الختان تكفير بالدم

المرأة عند بنى اسرائيل مخلوق نجس منجّس :

«وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دما فى لحمها فسبعة أيام تكون فى طمثها[1] وكل من مسّها يكون نجساً إلى المساء وكل ما تضطجع عليه فى طمثها يكون نجساً وكل ما تجلس عليه يكون نجساً وكل من مسّ فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء» .

لاويون ١٥ : ١٩ — ٢١

ويبدو هنا فى وضوح أن الأ ر ليس أمر احتياط صحّىّ وإلا كان الغُسل وحده كافياً للتطهّر . وليس الغُسل مرادفا للطهارة ولا النجاسةُ تعنى اتّساخ الجسد ، وإنما يتّصل معنى النجاسة والطهارة هنا بالمناسك الدينيّة ، وهذا ما يسلّم به كبار رجال الدين اليهودىّ .

وتستمرّ دورة الاعتزال فى فترة النجاسة والتأهب للتطهر

---

(١) الطمث : الدنس والفساد ، يقصدون هنا الحيض
وجملة « فسبعة أيام تكون فى طمثها » ترجمة خاطئة والصواب : فيجب أن تنحى بمعزل عن عداها سبعة أيام .

والعناية بالطهارة شهرا تِلْوَ شهر وسَنَةً فى إثر سنة مما يجعل من ذلك سوط عذاب ينغّص الحياة فى كل أسرة تنتظم امرأة

فما الذى ينبغى على المرأة أن تفعل لتعود « ظاهرة » كما كانت ولتصبح أمتعتُها مقبولةً عند إلهها ؟

اليكم الجواب :

« وفى اليوم الثامن تأخذ لنفسها يمامتين أو فرخَى حمام وتأتى بهما إلى الكاهن إلى باب خيمة الاجتماع فيعملُ الكاهن الواحدَ ذبيحة خطيّة والآخر محرقة . ويكفّر عنها الكاهن أمام الرب من سيل نجاستها فتعزلان بنى اسرائيل عن نجاستهم لئلا يموتوا فى نجاستهم بتنجيسهم مسكنى الذى فى وسطهم »

لاويون ١٥ : ١٩ – ٣١

يكفّر عنها الكاهن عمّاذا ؟ أعن جريمة كونها امرأة ؟ إن العبء الذى تضطلع به المرأة فى الحياة ثقيل باهظ وهى هنا تجشّم فوقه حَملَ وصمة « الإثم » ، ولامناصَ من قتل شكلَين بريئين من أشكال الحياة من جرّاء الحيض ، وما هو إلا وظيفةٌ طبيعيّة من وظائف الأعضاء .

ومتى وضعت المرأةُ طفلها فُرض عليها ، لجريرة أنها أصبحت أمًّا ، أن تقدِّم إلى الكاهن حَمَلا .

«ومتى كملت أيام تطهيرها لأجل ابن أو ابنة تأتى بخروف حولىّ محرقة وفرخ حمامة أو يمامة ذبيحة خطيّة إلى باب خيمة الاجتماع إلى الكاهن فيقدّمها أمام الرب ويكفّر عنها فتطهر من ينبوع دمها » .

لاويون ١٢ : ٦ — ٧

ونحن لن نعثُرَ ، مهما كدَدْنا الذهن أو حلّقنا فى سماء الخيال ، على صلة بين هذه التضحية بالدم وبين الاحتياطات التى تُفرض لوقاية الصحة الخاصّة أو العامّة . وإنما يكفِّر بنو إسرائيل لأن وساوسهم وأوهامهم أورثتهم الفزع من الدم وجعلتهم يسيئون الظنّ بالوظيفة الجنسيّة للمرأة وينظرون إلى تكوينها الجِسمانىّ على أنه لعنة من الله .

وقد استبدّ بهم الخوفُ من الدنَس ، وبدا أثر ذلك فى شرائعهم وشعائرهم ، فليس للمرأة أن تشترك فى تقديس يوم السبت لأن فى تقديسها إيّاه تدنيساً له ، إذ أنها تُعدّ فى ذلك اليوم «تابو» فهى تدنِّس من يَمَسُّها وما تمسّه ، ولهذا

كان محظورًا عليها أن تمارسَ أيّةَ مهنة أو أن تَلِيَ أيّ منصِب أو – حتى – أن تطهُوَ الطعام .

وقد تحدّث التَلْمود عن «تابو» المرأة الحيضَى ، فذكر أن المرأة إذا مرّت بين رجُلين وكانت فى أوائل مُدّتها أورَثت أحدَهما الموتَ ، فإذا كانت فى أعقاب مُدّتها اشتَجَرَ بينهما نزاع عصيب . ومما كان يتناقله القومُ أن المرأة إذا لقِيت فى طريقها ثعبانًا كفاها أن تقول له إنى حائض فاذا هو قد ولّى حَثيثا .

وهذا الاعتقاد بشأن المرأة الحَيْضَى لم يكن مقصورًا على العِبرانيين القُدامَى وحدَهم بل كان شائعًا فى مجتمعات مختلفة وتحدّثَتْ به «كتب مقدّسة» شتّى .

*

أما الختان فليس فى متون الأسفار المقدّسة أىُّ تصريح أو تلميح إلى أنه يُبغَى به نفع صحّىّ ، وإنما ذكره الكتاب المقدّس فيما يلى :

« وقال الله لإبرهيم . وأما أنت فتحفظ عهدى أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم . هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك . يُختن منكم كل ذكر .

فتُختنون فى لحم غُرلتكم فيكون علامة عهد بينى وبينكم . ابن ثمانية أيام يُختن منكم كل ذكر فى أجيالكم . وليد البيت والمبتاع بفضّة من كل ابن غريب ليس من نسلك . يُختن ختانًا وليد بيتك والمبتاع بفضتك فيكون عهدى فى لحمكم عهدا أبديًا » .

تكوين ١٧ : ٩ ـ ١٣

وهو كلام بيّن الدّلالة على أنه لا شأن للختان بالصّحة والعافية وإنما هو «علامةُ عهد» بين بنى إسرائيل وإلههم ومنسكٌ يقام عقب ولادة الطفل الذكر وتطهيرٌ له من ملامسته أمّه طَوال مدّة تطهّرها ٣٣ يوما .

ويميّز عبريّو الكتاب المقدّس بين ولادة الطفل الذكر وولادة الطفلة الأُنثى فيما يتّصل بتكفير الأُم عن حالتها الآثمة . فأما الطفل الذكر فلا غنًى عن تكفيره بالدم وذلك بأن يُختن فى اليوم الثامن من عمره .

«وكلّم الرب موسى قائلا . كلم بنى اسرائيل قائلا . إذا حبلت امرأة وولدت ذكرًا تكون نجسة سبعة أيام . كما فى أيام طمث علتها تكون نجسة . وفى اليوم الثامن يُختن لحم غرلته . ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً فى دم تطهيرها .

كل شيء مقدّس لاتمسّ وإلى المقدِس لاتجىء حتى تكمل تطهيرها » .

لاويون ١٢ : ١ – ٤

لقد حُتِم عليها أن تختِنَ الطفل فى اليوم الثامن من عمره ولوكان ذلك اليوم يوم سبت ، وفى هذه الحالة يكونْ عليها أن تضطلعَ وحدَها بختن وليدها ، إذ أن الآخرين محظور عليهم القيام بأى عمل فى هذا اليوم .

أما خَفْض الإناث فقد قلّت ممارسة القبائل البُدائيّة له لما ينطوى عليه من مشاقّ قد تُعقِب الموت إذا قامت به يُدٌ غير دَرِبة ، ولهذا يستعاض عن خفض الطفلة الأُنثى بمضاعفة مدّة التكفير التى تكون الأُم فيها نجسة ومضاعفةِ الزمن الذى تقيم فيه فى دم تطهّرها .

«وإن ولدت أُنثى تكون نجسة أسبوعين كما فى طمثها ثم تقيم ستة وستين يومًا فى دم تطهيرها » .

لاويون ١٢ : ٥

ولتطهّر الأُم من هذا «التابو» طريقة طريفة هى كما ذكرنا قبل :

« ومتى كملت أيام تطهيرها لأجل ابن أو ابنة تأتى بخروف حولى محرقة وفرخ حمامة أو يمامة ذبيحة خطية . . . »

لاويون ١٢ : ٦ — ٧

*

وكلمة « الطهارة » العربيّة التى تعنى الختان والكلمة المقابلة لها فى العبرية معناها التطهّر . وسنرى فيما يلى أن التطهّر هو الباعث على الختان .

كان التكفير عن الإثم بالدم على هذا النحو سائدًا بين القبائل البُدائيّة وإن اختلفت الطرق متدرّجة من شرم القلفة طوليًّا إلى إزالتها تمامًا . وكان المكسيكيّون البُدائيون لايكتفون ببتر القُلفة بل يَصلِمون الأُذُن كذلك إمعانًا فى التكفير بالدم (١) ، وكانوا كذلك يعهدون إلى القساوسة فى فضّ بَكارة الفتَيات بأصابعهم قيامًا بهذا المنسِك الهامّ . وقد أورد الـ «زِنْد أفِستا » المقدّس شروطًا لتطهُّر المرأة بعد الولادة تشبه شبها قويًا نظيرتها فى الكتاب المقدّس ، وفيها حُتِم على المرأة بعد انتهاء مِحنتها أن تُحرِقَ ثيابها جميعًا وأن تغتسل ببول العجول وتمكث أربعين يومًا فى حالة « تابو »

(١) ويجتزىء بعض المحدثين منهم فى الوقت الحاضر باحداث جرح فى الأذن .

مَن انتهك حرمته جوزىَ شرّ الجزاء . وكانت المرأة فى الإمبراطورية الروسيّة البائدة تُعَدّ نجسة بعد الولادة فلا يباح لها أن تتّصل بغيرها إلا بعد أن يطهّرها أحد القساوسة .

وقد لاحظ «فرايزر» أن كثيرًا من «التابوات» قد بقيت تمارَس على أنها تعبيرٌ عن مشيئة الله بعد أن قُضِىَ على الأفكار السخيفة التى انبثقت منها تلك التابوات .

ولقد حرّرتنا المعارف العلميّة من الأوهام الى قضت باستعباد المرأة دهرًا طويلا وبإلزامها أن تتطهّر لأنها تلد ، بيد أن الختان الذى انبثق من تلك الأوهام ما فتىء ماثلا بين ظهرانَينا .

منسك الختان

مازال رجال الكهنوت اليهودىّ بقومهم العِبريين حتى رسّخوا فى أذهانهم أن الختان يحفظ عليهم تضامنهم الدينىّ والجنسىّ ، وأنهم – مهما يكن من تساهلهم فى مختلِف شعائرهم – خُلَقَاءُ بأن يستمسكوا بهذا المنسك ، وأنذروا المقصّرين فى إحيائه بالنفى من المجتمع العبرىّ وهو مايعنى عندهم مصيرًا شرًّا من الموت .

« وأما الذكر الأغلف الذى لايُختن فى لحم غُرلته فتُقطع تلك النَّفْسُ من شعبها » .

تكوين ٧ : ١٤

يُدخل الختانُ الطفلَ اليهوديّ فى مجتمع بنى إسرائيل ويشتّت الأرواح الشرّيرة التى تُظِلُّ الطفل وأمّه طوال الأيام الثمانية السابقة للختان بخطر مقيم . وقد كانوايلتمسون هذه النتائج بأعمال تدخل فى باب السحر :

١ ـ فيضعونَ الغُرْلة المضرَّجة بالدم فى جَفنة مترعة بالماء والتوابل ، يَغسل فيها يديه وقدميه كلٌّ من يوشك أن يغادر الحفل .

٢ ـ ويضعون وسْط الحفل كرسيًّا ليجلسَ عليه النبيُّ إيليا (إلياس) فقد كافأه الله على ذياده عن منسك الختان بوعده إياه أن يُشهده كلَّ مايقام من مناسك الختان فى بنى إسرائيل أجمعين ، ومن ثم يرفع الحضور عقائرهم هاتفين بالتحيّة للضيف غير المنظور قائلين : «مبارك الذى قدِم » .

٣ ـ ويسرفون فى إيقاد الشموع منذ اليوم السابق للختان حتى نهاية الحفل ، متوهمين أن النور والصلوات يحولان دون تطرّق الشرّ إلى المنزل .

ويشتطّ بعضهم فيقومون الليلَ كلَّه متهجّدين[1] لدَرْء الأرواح الشرّيرة وكفّها عن إفساد المنسك الدينيّ .

وكانوا يختنون خدمهم أيضاً من غير اليهود حتّى لا يتغلغلَ الشرّ فى وسط القبيلة ، ويتسخّطهم من ينتهك شعيرة الختان لتوهّمهم أن ذلك يُذْكى حنَق إلههم المنتقم فينكّل بهم جميعًا ، إذ أنه – فى رأيهم – يَعُدّ القبيلة متضامنة على الخير والشرّ ويقتصّ من الناس أُمَمًا لا أفرادا .

حفظ الصحة

تسرّب الختان من عبريّى الكتاب المقدّس إلى الحضارة الغربيّة ، ولا عجب فى ذلك فقد بُنيت المسيحيّة على أساس كِتاب العبريين المقدّس واقتَبست من دِين العبريين مناسكَ شتّى (كالاستراحة يوما فى الأسبوع) وأعارت الكثير من تلك المناسك القديمة ثيابا قشيبة وأمدّتها برُقًى وعزائمَ مستحدثة ، بيد أن أساسها ظلّ هو بعينه أساسَ الأوهام الدينية اليهودية ، والأوهامُ سريعة العدوى وخيمة العُقبى يجدر بالمرء أن يتّخذ من

(١) تهجد القوم : استيقظوا للصلاة أو غيرها .

الاحتياط لوقاية عقله منها مثلَ ما يتَّخذ لوقاية جسمه من الأَمراض المُعْدية . وإن تاريخ الحضارة ليكشف لنا عن مدى أضرار هذه الأوهام ، فإن تحريم صنع « التماثيل المنحوتة » على اليهود قد عطَّل لديهم الغريزة الفنيّة قُرابة ثلاثة آلاف سنة ، كما أن اعتقادهم أن المرض هو عقابٌ من الله للإنسان على ما اجترح من آثام قد حال دون تقدّم الطب والعلوم البحتة على مدى القرون الوسطى .

ينشُد العلم معرفةَ الحقائق كما ينشد الفوائدَ المترتّبة على تطبيقها عمليًّا ، وإنه ليبحث ويجرّب فى صبر واحتمال حتى يهتدىَ إلى هذه وتلك ، وهو بذلك يختلف عن بثّ العقائد ، إذ أن دعاة العقائد يعتمدون فى تلقين الناس إياها على تكرار مزاعمهم ، فإذا ما كشف المرء بعض ما تنطوى عليه من أوهام أخذوا يتعلّلون بحُجَج ملفّقة ومضَوا يبتكرون تفسيرات يسوّغونها بها ، وقد أُبدِيَت فى الاعتذار من الختان أعذار كانت قمينة بأن تثيرالضحك لولا أن عواقبه تثير الأسى وتبعث على الحسرة .

لقد أوجبت الشريعة اليهودية ختن الطفل المولود ميّتا ، تُرى ما صلة ذلك بالصحة ؟ وقد فُرضت إقامةُ منسك الختان

حتى للطفل الذى يولد بلا قُلْفة ، وعندئذ يتمّ تطهيره باستنزاف قطرات من دمه من موضع آخر من جسده ، فأيّة صلة لذلك بالصحة ؟ أليس ذلك دليلا على أن هذا الدم إنما يُهرَق على أنه « دم العهد » ؟ .

ولكن السبب الحقيقى للختان ، ألا وهو التكفير بالدم ، ليس مما يستسيغه الناس فى الوقت الراهن ، ومن ثم التمس المؤمنون مبرّرا لاستمرارهم فى ممارسة الختان فزعموا أنهم يبغون به غاياتٍ صحيّةً ، فإذا كان ما يزعمون صحيحا فما بالهم يُغفلون قواعدَ صحيّة كثيرة ويتتايعون[1] فى أعمال شديدة الإضرار بالصحة الخاصّة والصحّة العامّة ؟ ما بالهم يُضربون عن أكل الأرُزّ الطبيعىّ الأحمر والخبز الكامل الأسمر ويوجبون صقْل الأول وتقصيرَه[2] وتصفية الثانى من النخالة وهى ملأى بالفيتامين .

الحق أن الذين ارتضَوا الختانَ لأولادهم لم يفحصوا عن أمره ولم يبرهنوا على نفعه ، وإنما هم ارتضَوه لأنه منسك دينىّ ، فأمّا النظافة فالوسيلة اليها هى الماءُ والصابون .

(١) تتايع فى الشر : تهافت وتمادى وأسرع . يتتايع فى الأمور : يرمى بنفسه فيها من غير تثبت .
(٢) قصر الثوب : حوره ودقه . حور الثوب : بيضه .

هل الختان مسألة طبية

يتوهّم الذين لم يُتَح لهم أن يدرُسوا الختان دراسة كافية أنهم أمام موضوع طبّىّ ، فإذا كان الأمر كذلك فلمَ يتولاه رجل من رجال الكهنوت لاتربطه بالطب أية رابطة ؟ ولمَ يختن الأطفال العبريّون كافة دون تمييز بينهم ودون أن يُفحَص عنهم طبيا ؟ إن الذين يصطنعون الختان لايلتمسون نصيحة الطبيب ، وإنهم ليرتضُون هذا البتر لأهميته الدينية دون نظر إلى استهجان الطبّ إياه .

ويحتجّ بعضهم للختان بما يحدث للمولودين حديثا من التصاق القُلْفة بالحشَفَة ، وإنها لحجّة داحضة ، فإن هذا الالتصاق هو إجراءٌ وقائىّ طبيعىّ لحماية الحَشَفَة حين تكون أوّلَ أمرها فى حاجة إلى هذه الحماية ثم يزول الالتصاق عند حدوث أوّلِ انتصاب دون أن يسبّب ذلك للطفل ألما أو يسترعى منه انتباها . ولا شأن لهذا الالتصاق الموقوت بالالتصاق التام الذى هو ضرب من التشوّه يطرأ على الحشَفة ويوشك أن يحبِس بول الطفل .

إن ختن جميع الأطفال لأن نسبة بالغة الضآلة منهم قد تصاب بالالتصاق التام هو خُرق فى الرأى يماثل فضّ بَكارة إناث الأطفال عامّة عقب ميلادهن لأنه سيكون منهن فى الكبر من لها غِشاءُ بكارة بالغ الصلابة يصعب فضُّه فى ليلة العُرس .

هل يقى الختان من الزُّهرىّ والسرطان

عندما تكشف الحقائق عن بُطلان منسك دينىّ يلجأ القوم إلى الاحتجاج له بحجج برّاقة ، ومن ذلك أنه لما استبان للناس أن الختان إن هو الا منسك دينىّ لا يُجدى على الصحة ادعى المؤمنون به أنه يقى المختونَ وطأةَ الأمراض السرّية . وقد باء الذين صدّقوا هذه الدعوى بأفحش تلك الأمراض .

ومن المنافع التى نحلوه إياها أنه يحول دون الإصابة بالسرطان ، بيد أن إصابة الحشَفة بالسرطان أمر ينذُر حدوثه ، وإن عدد الذين هلكوا من جرّاء الختان ليفوق كثيرا عدد الذين ماتوا بسرطان القُلْفة ، فهل نختِن مليونا من الأطفال لأن واحدا منهم سيصاب بالسرطان ؟ أجل ، هذه هى النسبة . ولم لانتريّث حتى تبدُوَ أعراض المرض على هذا الفرد الأحد فنسلمه إلى الجرّاح .

عواقب الختان

ولدت ابنةُ عمٍّ لى طفلا ذكرا فمضَيتُ اليها مهنِّئا ، وكان الحادث سعيدا حقًّا لأنها رُزقته على اليأس بعد زوجيّة طال أمدها ، وقد حذّرتُها من ختْن الطفل ثم رجوتها أن ترجىءَ ذلك ، على الأقل ، حتى يصلُبَ عُودُه ، ولكن الحُجج التى أدليتُ اليها بها لم تُثر فيها غير التبرّم بى ، وخُتن الرضيع فى اليوم الثامن حسبما أوصى الكتاب المقدّس وخمدت أنفاسُه قبل أن يَتمّ له من العمر شهر .

وأنهى إلىّ صديق من رجال الأعمال أن أحد موظّفيه قدِم اليه ذات يوم متهلِّلَ الأسارير يزُفُّ اليه أن زوجته على وشك أن تضع طفلها الأول ، وكان لها معه عشرون عاما ، وجاء وليدُها نموذجا حسنا للطفل الحديث الولادة . واقترح الطبيب الذى وُلد الطفل على يديه ، وكان كاثوليكيًّا مثلَه ، أن يختِنَ الطفل فأقرّ والدا الطفل مقترَحه ، ولما تمّ الختان أقرّت الأمُّ الطفلَ فى مهده ، ثم ألقت عليه ، بعد هُنيهة ، نظرةً فإذا هو جثة سابحة فى الدم . لقد نُزِف حتى قَضَى .

وأنهى إلىّ طبيب من معارفى أنه اعترض مرّة على ختن طفل يهودىٍّ سليلِ أسرةٍ مصابة بالمزلج النزفى[1] فقال الأب إنه يؤثِر أن يرى ابنه جثة هامدة على أن يخلِّفَه أقلف ، وكان له ما آثر ، إذ أنه لم ينقض ربع ساعة حتّى كان الطفل قد زايلته الحياة .

وإنما يحدث الموت لمن يموت من الأطفال إثر ختنهم فى هذه السنِّ المبكرة وتؤوب طائفةٌ أخرى منهم بالعواقبِ الوخيمة ، لأنهم يعجِزون وهم فى الأيام الأولى من حياتهم عن احتمال قسوة الجراحة .

هذا وقد أظهرت البحوث الأخيرة أن السبب فى تخثُّر الدم هو ما يعرف باسم فيتامين ك ، وهو لايكون فى الأطفال الأصحاء قبل اليوم العاشر من عمرهم ، كما أظهرت أن الطفل يرث من أمِّه مقدارًا من البروثْرُمْبين يبدأ به حياته ، ثم يأخذ هذا المقدار يتناقص خلال الأيام القليلة الأولى من عمره الى أن يبدأ جسم الطفل فى اكتساب هذه الصفة ذات الأهمية الحيوية ، فإذاختُن الطفل عرقل ذلك اكتسابه هذه الصفة

---

(١) الهيموفيليا وهو مرض يرثه الابن من أمه فاذا الدم ينزفه لأقل سبب ويستعصى وقف النزف أو يكاد .

خطر الختان من الناحية النفسية

ليست الأضرار والأخطار التى تصحَب الختان مقصورة على أنه عبثٌ بعضو هامٍّ من أعضاء الجسم وأنه يحمِّل الوليد ألماً لاموجِبَ له بل إن ما يترتَّب عليه من أضرار خفيَّة لايسهل تبيُّنها لأخطرُ من ذلك ، ألا وهى الأضرار الناجمة عن مداهمة المجموع العصبىّ بصدمة شديدة الوقع على مخّ الوليد الغضّ .

لقد أبدى الجرّاح الأمريكىُّ المعروف دكتور مَيلْز أتْكِنْسُن فى كتابه «خلف قناع الطب» استهجانه للختان وحمل على زملائه الجراحين الذين يرتضون القيام بختن غير اليهود فيمرِّغون بذلك سمعة المهنة فى الرَّغام ، ثم قال :

«وقد يكون أعظم آثار الختان فيما يتَّصل بالوليد ثم بالطفل هو الأثر النفسىُّ الذى قلما يحظى بعنايتنا ويسترعى انتباهنا . وربما قلتَ : ماذا عسى أن يكون ثم من أثر نفسىٍّ فى وليد يبلغ من العمر ثمانية أيام أو حتى ثمانية أسابيع ؟ ألا إنه لأعظم مما تظن ....

وهل هنالك تبدُّلٌ يطرأ على الإنسان أعظم من انتقاله من رحِم أمِّه إلى هذا العالم ؟

واذا كنت وأنت فى غِمار هذه الملابسات وقبل أن تستقرَّ فى هذا العالم الجديد الذى قُذف بك اليه ترى نفسك قد وثب عليك رجل ينتضى سكينا يبتر به بَضعةً منك فيبدِّل بإحدى الملذات القليلة التى تستمتع بها (ومن المسلَّم به أن الإفراز يُحدث للطفل لذَّة مفرطة) ألما ممضا ، أفلا يضجرك ذلك ويُجزِعك ...؟

ثم هنالك مسألة التخدير (البنج) . لقد جرت العادة أن يخدَّر الأطفال الكبار على حين لا يخدَّر الحديثو العهد بالولادة... وثمَّ من ينصح بالتخدير فى جميع الحالات ، بيد أن للتخدير أخطارا يعظم أثرها فى الأجسام الصغيرة . وإن موت طفل صحيح الجسم بالتخدير من جراء جراحة مشكوك فى سَدادها لأمر لا يجوز أن يدور بخلد أحد » .

لقد أصبح علم الطب فى الوقت الحاضر يعرف أن صدمة الجراحة الخطيرة تؤثر فى الجهاز العصبىّ . وكثيرا ما يتراءى ردُّ الفعل السلبى لهذه الصدَمات فى أعراض تنطلس على الطبيب لأنه يعجِز عن تتبع العلة حتى يهتدىَ الى تلك الصدمة نفسها التى أحدثتها . وهذه الصدَمات هى بوجه عام تلك التى يكون المرءُ قد عاناها فى الطفولة الباكرة . لقد أصبح علم الطب الآن

على بَصرٍ بهذه الحقيقة النفسانيّة وإنه ليحذّرُ الوالدَ والطبيب كليهما من مقاربة أى عمل قد يخلّف فى عقل الطفل انطباعا لا يمحى .

وكم من طفل أعول وانتحب إنكارا لضرب أبويه إياه لأعمال أتاها ولم يكن فى مقدوره أن يكفّ نفسه عنها . وأنّى لنا أن ندرك أن عجز الطفل عن الهيمنة على إرادته لم يكن وليد صدَمات جعلت زمام تحكُّمِه فى أفعاله يُفلِت من يديه ؟ وإذا كان من المقرّر أن الصدمات تخلّف فى الجسم آثارا وخيمة فكيف بآثارها فى العقل ؟

ترجع أمراض الكثيرين الى ما أصيبوا به فى طفولتهم من صدَمات عصبية دهتهم بأدواء كالنزوع الى الكذب والسرقة والخمول والتلعثم فى النطق والتحدّث فى النوم والجولان فى خلال النوم والإكزيما وما اليها من أمراض جلديّة :

وقد لفَتَ دكتور دافيد م ليڤى وهو من أشهر الأطباء النفسيّين انتباه الأطباء الى أخطار الختان فى سن باكرة وقال فى بحث له نشرته «الصحيفة الأمريكية لأمراض الأطفال» فى يناير من سنة ١٩٤٥ إنه تأثر بكثرة عدد الحالات التى شهِد فيها الهلع والهمّ واضطراب البال ترتسم على وجوه الأطفال عَقِب

إجراء الجراحة ، وإنه لاحظ أنه كلما كان الطفل أصغر سنًّا كان أعظم تأثُّرا بالألم وأشدَّ استجابةً له . وقد وجد أنه كثيرا ما ينجم عن تلك الصدمات نوباتٌ من الفزع والرعب تنتاب الأطفال فى أثناء نومهم فيهُبّون موَلوِلين معوِلين ثم يصمُتون قانطين ولا مُعين ، كما وجد أن هذه الصدماتِ تتفانى ويزول أثرها بعد فتَرات تتباين طولا وقِصرا ، ولكن قد يحدث ألا تزولَ البتةَ فى طور الطفولة فتتراءى فى الكبر على صورة مسلك عِدائىّ للمجتمع واستجابةٍ للنزَعات الهدّامة وارتطامٍ فى حمأة الإجرام يُنْشد به الاقتصاصُ من المجتمع للعجز عن نيل النَّصَفة فى مضمار المنافسة فى الحياة . وقد شهِد أطفالا فى الثالثة والرابعة من أعمارهم أصبحوا بعد جراحة الختان ذوى طباع شكِسة ونزوع الى التمزيق والتحريق والهدم والقتل والانتحار ، وكان ذلك يبدو جليًّا فى ألعابهم ، وشهد كذلك طفلا أصبح بعد ختنه يبلِّل فِراشه .

الجراحة

إن الجهل بتفصيلات جراحة الختان هو الذى يجعل منها مأساة فاجعة ، ولو علم الناس بما تحدثه هذه الجراحة من ألم أليم وما يرفرف حولها من خطر جسيم وما تورثه من أذى مقيم وما تسببه من موت وخيم لحظروا الختان وعاقبوا من يساعد فى إجرائه .

وقد أوضحت دائرة المعارف اليهودية هذه التفصيلات فقالت :

« ينتهى العضو بقطعة من اللحم مخروطية الشكل تسمى الحشَفَة ، ويستطيل الجلد الذى يغطى العضوَ الى الأمام فتنشأُ من ذلك ثِنْية سائبة تغطى الرأسَ ذاتُ بطانة داخلية تشبه الغشاء المخاطىّ اذا سُحبت كوّنت غِطاء للحشفة ، ويسمى الجزء الممتدّ من الجلد وبطانته بالقُلفة . وليس فى القُلفة أوعية دموية كبيرة ، ومن ثم فإن الختان لايكون مصحوبا بأى نزف دموىّ خطر الا اذا أصيبت الحشفة بجُرح نتيجةَ معالجةٍ بالمِبضَع غيرِ ماهرة أو فى حالات شاذّة جدا يكون معها ميلٌ غير طبيعىّ للنزف ».

وثم اختلاف بَيِّنٌ بين الختان عند اليهود وبينه عند المسلمين ، فهو عند اليهود ليس يعنى إزالة الجزء الخارجىّ من القُلفة فحسب بل هو يعنى كذلك شقّ البطانة الداخلية لتتعرّى الحشفة تعرّيا تاما ، بخلاف المسلمين فهم يتبعون الطريقة السهلة فيقطعون القسم الجلدىّ من الحشفة حتى توشك الطبقة الداخلية أن تبقى كلها وتظل الحشفة مغطاة.. »

وتنقسم الجراحة ثلاثةَ أقسام :

« ١ ـ .... يمسك الخاتنُ القُلفة بإبهام يده اليسرى وسبّابتها ويشدّها شدّا تاما يكفى لسحبها من الحشَفة ويضع الدرع (انظر الرسم) أمام الحشفة تماما ثم يأخذ موسَى ويستأصل القُلْفة بضربة واحدة ، وبذلك يُتِمّ القسمَ الأول . وتكون الموسى فى الغالب ذات حدّين »

وكيف يطيق الوالدان مشاهدة طفلهما المحبوب يُسام هذا العذاب الوبيل من أجل غرض دينىّ ؟

« ٢ ـ وبعد إتمام الاستئصال يُمسك الخاتن بالبطانة الداخلية للقُلْفة ، وهى ما زالت تغطى الحشَفة ، بظفرَى الإبهام والسبّابة من كلتا يديه ، ويمزّقها حتى يتسنّى له إزاحتها تماما عن الحشفة وتعرية الحشفة تعرية تامة . والمعتاد أن يُعِدّ

الخاتن ظفرَ إبهامه إعدادا ملائما لهذا الغرض . ويحدث فى حالات استثنائية أن تكون البطانة الداخلية للقُلفة ملتصقةً بالحشفة التصاقا قويا أو ضعيفا مما يعرقل العمل بعضَ الشىء ، ولكن الإصرار والمثابرة يتغلبان على الصعوبة »

أجل ، يتغلب الإصرار والمثابرة على صعوبة تمزيق الجلد الملتصق بالحشفة .

« ٣ — يضع الخاتن فى فمه شيئا من الخمر ثم يحتوى بفمه الجزء الذى أجريت فيه الجراحة ويأخذ يمصّ ثم يَمُجّ مِزاج الخمر والدم فى وعاء مُعدّ لذلك (انظر الرسم) ويكرّر الحجامة (أى المص) عدّة مرات . وبذلك ينتهى الختان فلا يبقى الا ملاحظةُ النزف والتئام الجُرح »

ومن المعروف أن هذا العمل سبّبَ تفشىَ أمراض شتّى كالسّلّ لأن باسيلوس السّل يكاد يعيش دائما فى أفواه المرضى بهذا الداء ، فإذا كان الخاتن مصابا به انتقل الداء الخبيث منه الى المختون وقد يكون فيه حتفه ، ومع ذلك فهم يزعمون أن فى الختان وقايةً للصحّة .

وقد ذكرت دائرة المعارف هذه طريقة غسل العضو المجروح بموادَّ قابضة وأوصت بالمحافظة على نظافته حتّى لايتقيّح أو يصاب بالحُمرة ، ثم قالت :

«ويجب بذل العناية واصطناعُ الحذر عند الإمساك بالقُلفة وشدّها قُبيل استئصالها بالموسى ، وذلك أنّ الطبقة الخارجية أكثرُ من الداخلية قابلية للتمطط ، فإذا كانت الطبقتان لاتُمسَكان معا بقوّةٍ وثبات من حافَتيهما فقد يحدث عند جذب الطبقة الخارجيّة أن تلتفَّ على نفسها فإذا المبضع يزيل بَضعة مستديرة من الجلد فيما يلى حافَة القُلفة مباشرة ، وذلك ما يقتضى – بَداهة – إزالةً أخرى لما بقِىَ من الحافة .

هذا وقد يستغنى القائمون بهذه الجراحة عن استخدام الدرع ، وهذا ما لا نوصى به لأنه يعرّض الطفل لخطر اقتطاع جزء من الحشفة ولما يترتّب على ذلك من نزف خطر » .

لا جرَمَ أن هذه التفصيلات لو ذُكرت فى أمرٍ لا صلةَ للدين به لعُدّت قسوةً بدنيّة تستوجبُ المؤاخذة القانونية والتعويض . وإن فى التنبيه الى ضرورة بذل العناية القصوى واصطناع الحذر الشديد فى أثناء الجراحة حتّى لايلىَ الحشفةَ

منها هذا البترُ الوبيل لدليلا على أن ثمة أطفالا عاثرى الجد بُترت أعضاؤهم بترا عند القيام بهذه الجراحة الشيطانيّة·

«وينبغى على القائم بالجراحة عند استخدام أظفاره فى تمزيق الطبقة الداخلية أن يُعنَى بجعلها تامّة النظافة ... ويجب عليه اصطناع الحذر عند إجراء المزق حتى لا ينحرفَ بعيدا عن الخط الأوسط ، ويجب ألا يستمرّ المزق طويلا الى الخلف والا أدّى ذلك الى إدماء حافَة التاج إدماء لامبرِّرَ له . واذا كانت الطبقة الداخلية صُلبة أو كان بها التصاق يجعلها مشدودة الى أسفلَ وجب أن يُستعمَل للطبقة الداخلية مِقصّ ذو طرف مسبرىّ . ويوصى دكتور كيلبرج ودكتور لوفى باستخدام المقصّ فى جميع الحالات لأن الجُرح الحادث به يكون أكثرَ إتقانا وأقلّ تعرّضا للعدوى ، بيد أنه ينهض ضدّ هذا الرأى المبدأُ المقرّر فى الجراحة وهو أن الجرح الناجم عن التمزيق يكون أقلّ نزوعا للنزف من الجرح الناشىء عن آلة حادّة »

انظر كيف يَصدِف« القائم بالجراحة » عن استخدام الآلات الجراحيّة ويعمِد الى تمزيق عضو الطفل بأظفاره لأن هذه الطريقة العتيقة على شدّة إيلامها أقلّ إدماء للجُرح·

وقد قرّر الحاخام شُلْسُن أن بعض المستشفيات حظرت إجراء الختان فيها وأن الأخطار أصبحت تتهدّد هذه الشعيرة ، ومن ذلك أن عددا كبيرا من بنات اسرائيل أصبحن يُؤثرن أن يعهَدن فى هذا المنسك الى طبيب على أن يدعن خاتنا ينهض به . وفى هذا القول اعتراف صريح بأن الختان منسك دينىّ لا شأن للصحة الخاصّة أو العامّة به .

« وقد هبّت فى السنين الأخيرة معارضة قوية فى وجه إجراء القسم الأخير من الجراحة ، على أساس أن ذلك ينافى تماما أصول تطهير الجراح ، وهى ما يجب أن نحرص عليه فى كل الحوادث ولا سيما بعد أن حدثت فى كراكاو حادثةٌ ذاع صيتُها اتّصلت فيها عدوى الزُّهَرىّ بعدد جمّ من الأطفال اليهود عن طريق فم أحد الخاتنين » .

يا لسخرية القَدر . عدوى الزُّهَرى تنتشر من الختان وهم يزعمون أنه شُرع للحيلولة دون الإصابة به .

« وأهم شىء يلى إتمام الجراحة هو اليقظة ضد النزف ... فعلى الخاتن أن يلبث مع الطفل مالا يقلّ عن ساعة حتى يستيقن من أنه لن يحدث له نزف ما وحتى يرقأ النزف إذا حدث

وثم نوع من النزف لم نَعْرِضْ له ، وإنه لجدير بأن يُذكر : فمن المعروف أن هنالك أفرادا ينزفون بغزارة وإلحاح عند أقلّ إثارة . ولا بد أن يكون الحاخامون قد أحاطوا بذلك علما لأنهم لقّنونا أنه اذا ثكِلت أمٌّ طفلين من جرّاء الختان أعفِيَ الأولاد الذين يولدون لها بعد ذلك من هذه الجراحة » .

فإذا لم يولد لها ولد بعد ذلك فماذا ؟ ما تعزيتها عن التضحية بولديها على مَذبح الوساوس والأوهام ؟ وحتى مَ يصبِر المجتمع الحديث على هذه المآسى ؟

ختان الكبار

وأجدنى هنا مضطرا إلى الإفضاء بنبإ شابٍّ من المسيحيين أُغرِم بفتاة يهوديّة وطابت نفسُه أن يُختَنَ إعرابا عن صادق حبّه وولائه . وألقى الشابُّ بعد أيام نظرة على نفسه فإذا هو قد لحق عضوَه التشوّهُ فى المنظر والمخبر فتفزّرت الخياطة عند انتصابه فبدا جزءٌ منه عاريا كأنه ثعبان سمك مسلوخ ، وأصبح لا يعدو زائدةً مدلاّة فى التواء تنزِف دما ولها منظر أليم يستدرّ الرثاء .

تشريح الحشفة وميكانيكيتها ووظيفتها

لست أعتقد أن الإنسان يولد بقُلْفة لا لسبب إلا لكى يستأصلها بعد الولادة . إن القُلفة لا تقتصر على أنها تحمى الحشفة من أن يلمّ بها جُرح بل هى تضطلع كذلك بوظيفة هامّة فى ميكانيكيّة الجِماع ، إذ تُبقى التاج محتفظا بالحساسية التى تكفُلها له رقّة لحمه فتجعله يستجيب للتنبيه عند احتكاكه بالمَهبِل فى أثناء الجِماع .

لو أن القُلْفة كانت عضوا أثريّا يسير فى سبيل الانقراض — وهو ماليس كذلك بَداهة — لكانت مع ذلك قمينة بألا تُزال إلا لسبب طبىّ معلوم كما هو الشأن فيما يتّصل بالزائدة الدوديّة وعظمة العُصْعُص اللتين لا عمل لهما . ولكن الأمر بخلاف ذلك فإن القُلْفة جزء هام من تشريح الإنسان له غرض محدّد واستعمال مفيد ، فهى — بالإضافة إلى وظيفة الحماية — تضيف إلى القضيب عند انجذابها جِرما إضافيا يُدلّك جدران المَهبِل المتغضّنة فيحرّض على تدفّق العصائر الجِماعية ويُحدث إحساسا جِماعيا للديدا لكل من الأنثى والذكر ، مما يهيئهما لبلوغ ذِروة الاستمتاع .

وقد أبدى دكتور ا . ب أَرْنُلْد ، فى بحث له قرأه فى المجمع الطبىّ فى بلتيمور ، استهجانَه للختان لأنه يجرّد الحشفة مما يحميها فيورثها دوامُ تعريتها واحتكاكها بالأجسام الخارجية نقصا فى الحساسية يطّرد على الزمن ، ثم قال :

« وليس من العسير علينا أن نتكهّنَ بالغرض من القُلْفة اذا أدركنا ضرورة حماية الحساسية اللمسيّة للحشفة ، الناجمة عن وجود أجسام باتشيين فى الأعصاب . وإنه لمن المتعذّر تصور شىء أمثل من القُلْفة لوقاية التكوين الكثير الأوعية المرهَف الحساسية الذى للحشَفة ، ولحمايته من مصادر التهيج والاحتكاك التى قد تبعث فى العضو حساسية تؤدى – تبعا للأُسس الفسيولوجية – إلى استمناء مبكّر . يضاف إلى ذلك أن التاج هو بلاشك أكثر أجزاء الحشفة قابلية للتهيّج ، ومن ثم فإن تعريته بالختان يجعلها أسهل تأثّرا بالدغدغة الحادثة اتّفاقا .

يرى الكثير من الجراحين أن الختان جراحةٌ لا مبرِّر لها ، وأنه عمل بربرىّ مؤلم خطر مناف لنيّات الطبيعة ، وأن للقُلفة من الحقّ فى البقاء مثل ما للأنف والعين والساعد ، وأنها تؤدى وظيفة معيّنة ، فإزالتها خُرق وإجرام كإزالة أى جزء آخر من

الجسم ، ومَثَل من يجتثّها كمثَل من ينزِع أسنانه ليوفّر على نفسه عناء تنظيفها كل يوم .

قال دكتور بَوْلو مَنْتِيجَتْسَا من جهابذة العلماء فى حفْل السلوك الجنسىّ :

« وكون القُلْفة عضوا يورث الذكر لذّة وسرورا هو أمر لا سبيل إلى الشك فيه . . . هنالك شىء واحد أعرفه ، هو أن إجراء الختان بين المتمدنين عملٌ زَرِىٌّ فاضح. . . وسأهيب بالعبريين ولا أنفك أهيب بهم حتى النفَس الأخير : أقلعوا عن الختان » .

وكتب دكتور ج ثُمْبْسُن فى « الصحيفة الطبيّة البريطانية » يقول :

« عندما تقبّلتُ ، فى وقت ما ، ما أدلت به إلىّ السلطات والكتب كنت وثيق الإيمان بمنسك الختان فرضيت بأن أختن ، فلما ازددت خبرة وحُنْكة اقتنعت بما فى إجراء هذه الجراحة من بعد عن السّداد ... وإنى لأُلحّ مشدّدا فى حظر هذه الجراحة وما اليها من ضروب البتر الموذى الذى لا تدعو إليه ضرورة » .

وكشف دكتور أتْكنْسُن ببصيرته النيّرة وبتحليله العلمىّ عما للقلفة من جليل الشأن ، فقال :

إن الجزء النهائىّ من العضو (الحشفة) مغطى بِغِشاء رقيق مفرط الحساسية . ووظيفة القلفة هى صيانة هذه الحساسية ، والختان يذهب بهذه الصيانة فيغلُظ الغشاء المغطّى من جرّاء تعريته وتتبلّد فيه قوة الحِسّ . وثم ما هو أسوأُ من ذلك ، وهو أن موضع الذّروة من الإحساس الجنسىّ مقرّه السطح الداخلىّ للقلفة لِصقَ الشّكال ، وهذا الموضع مقضىّ عليه بالإزالة . وكون سُورة اللذة الجنسيّة تفتُر بالختان هو أمر ثابت يشهد به الرجال الذين خُتنوا بعد أن بلغوا مبلغ الرجولة . وإنها لمأساة حقا من وجهة علم الجمال » .

وعلى المرء أن يذكر أن حرمانه نفَسه هذه المتعةَ بالعضو الذى حبته به الطبيعة يقتضيه فوق ذلك أن يجشّمَ نفسه مؤونة جراحة موجِعة ، فهل فى سجلّ الحماقات البشريّة ما هو أمعن فى السخف من ذلك ؟

الهوس الدينى والبتر الجنسى

لم تزل مواطن الالتذاذ فى الجسم البشرىّ دائما أبدا هدفا لإساءة الاستعمال الدينىّ ، وقد عمَد الإنسان مع مرور الأيام إلى أشكال شتى من البتر الجنسىّ أجراها وهو مأخوذ بسحر الأوهام والوساوس الدينية ، وتقع تبعةُ ذلك على تلك المقدّمة المنطقيّة المضلِّلة القائلة بأنه كلما عانى المرء فى هذه الدار قل عناؤه فى « الدار الأُخرى » .

لقد انحرفت العقائد الدينيّة عن طريقها لتعثُرَ على أساليبَ ووسائل تصطنعها للتنكيل بالأفراد وملاحقتهم بالمتاعب والمحَن ، ومن ذلك أنها قضت على أتباعها بأكل أعشاب مُرّة لأن التنعّم حَوْبةٌ وإثم ، ولا زال الصيام عن الطعام الشهىّ فتَرَات طويلة شائعا فى وقتنا هذا . وإن إقلاع الناس فى الوقت الراهن عن كثير من تلك الإساءات إلى الجسم ، أو تطويرهم إياها ، لدليل على أن البشريّة قطعت شوطا فى سبيل التحرّر من آثار الماضى الحافل بالوساوس والأوهام ، وفى ذلك ما يشجّع على وصل جهودنا فى نشر العلوم والمعارف . إلى أى مدًى يتّسع البَوْنُ بين هؤلاء الذين يدفعون أولادهم إلى الختان وبين أولئك القساة

المتوحشين من رجال القرون الوسطى الذين كانوا يبحثون عن الغلمان الأبرياء فيخصونهم (دون تخدير) ليكفُلوا لجَوقات المرنِّمين بالكنائس حاجتَها من الأصوات العالية (السُّبْرانو) ، إذ أنه لم يكن يباح للنساء فى ذلك العصر تدنيس الخدمة الدينيّة المقدّسة ؟ ولقد عمّ اقترافُ تلك الجريمة ، لم يردع أولئك القساةَ عنها أن الموت كان يتخطّف ما يُربى على نصف الذين أجريت لهم تلك الجراحة ولم تؤثِّر فى قلوبهم صرَخات الألَم ممن لم يتخرّمهم الموت . وقد أُحصِيَ الذين طُوِّشوا فى رَبَض (١) مدينة روما قبل حكم البابا كْلِمِنت الرابعَ عشر (١٧٦٩-١٧٧٤) ليتّخذوا منها ذُخرًا لجَوقات المرنِّمين الكنسيين فبلغت عدّتهم أربعة آلاف خصىّ .

وكان الرهبان الأقباط فى جِسجه (؟) يَخْصون عبيدهم من غِلمان الزنوج معتقدين أنهم يأتون بذلك عملا مباركا ، وكانوا يمارسون هذا الخَصْى بقسوة بالغة إذ يستأصلون أعضاء التناسل تماما ثم يكوون الجراح بالماء المُغْلَى وقد عمد أقوام آخرون إلى خصى أنفسهم ضمانا للعفّة ، وكانوا يفسّرون بعض آيات العهد الجديد على أنها تحُثّ على ذلك ، ومنها .

(١) أى ماحولها من بيوت ومساكن ، يقال نزلوا فى ربض المدينة

« وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه . فإن كانت عينك اليمنى تُعثرك فاقلعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم » .

متى ٥ : ٢٨-٢٩

« لأنه هو ذا أيام تأتى يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثُّدِى التى لم تُرضع » .

لوقا ٢٣ : ٢٩

« فأميتوا أعضاءكم التى على الأرض الزنى النجاسة الهوى الشهوة الردية » .

كولوسى ٣ :٥

ومما يؤيد أن هذه التفسيرات حملت ألفافا من الناس على المعاطب وحفزتهم إلى خصى أنفسهم أن أوّل شيعة من الخِصيان قد ألّفها تلميذ لواحد من أوائل الآباء المسيحيين يدعى أُرِجِنْ وهى شيعة الفالِيريين نسبة إلى مؤسسها العربى (؟) فالِرْيوس ، والمعتقد أن تلك الشيعة هى النموذج الرُّوحى السابق لشيعة الاسكوبتيّين التى ازدهرت فى روسيا فى أوائل القرن الحادى عشر ثم عمّ انتشارها فى عهد كاترين الثانية

(١٧٦٢ - ١٧٩٦ م) وكان المنتمون إليها يُحدثون الخَصى بإتلاف الخصيتين بالحديد المُحْمَى ويعُدّون ذلك تعميدا بالنار . وكثيرا ما كانوا يجتثُّون أعضاء الذكورة فيربطون القضيب والخُصيتين معا ثم يبترونها جميعا بضربةٍ فأس واحدة.
وعندهم أن الخطيئة الأصلية للجنس البشرى لم تكن الأكل من ثمار شجرة المعرفة بل كانت هى الاجتماعَ الجسدىَّ بين آدم وحوّاء ، إذ أن ذلك الاجتماع كان ألذَّ وأشهى إلى نفسيهما .
ولقد فحص بعضُهم نحو خمسة آلاف شخص ممن ينتمون إلى تلك الشيعة ، منهم ٣٫٩٠٠ ذكر و ١٫٤٠٠ أنثى فكان بين الذكور ٥٨٨ بُتِرَ لهم كلُّ شىء و٨٣٣ بُترت خُصيتاهم و٦٢ بُترت لهم أجزاء أُخرى ، وكان بين الإناث ٩٩ مبتورات الثديين والأعضاء التناسلية جميعا و ٣٠٨ بُتر ثدياهُنَّ وحدهما و١٨٢ بُترت حلمات أثدائهن و ٢٥١ بُترت أعضاؤهن التناسلية و ١٠٨ بُترت لهن أجزاء أُخرى من جسومهن .

وليس الزهد والعزوبة والرهبنة وما إليها إلا صورًا أُخرى من « البتر » . إن المتهوّسين الدينيّين الذين يمارسون هذه الضروب من البتر إنما يختلفون فى الدرجة لا فى النوع عن هؤلاء المتهوّسين الدينيين الذين يمارسون الختان

باسم الإنسانية أقلعوا عن الختان

من واجب المجتمع أن يدرأ عنّا وحشيةَ التشريع القبَليّ . لقد كبحت قُوى التمدُّن العظيمةُ غرائزَنا وهذّبت سلوكنا . وقد تألّفت جماعات للرفق بالحيوان وأُخرى للحيلولة دون أن نأخذ أولادنا بالقساوة والعنف . ولو لم يكن خَتْن الأطفال عادةً يمارسها الناس دون تفكير ، لو أنه كان اقتراحا جديدا بسطه أحدُهم اليوم أوّلَ مرّة ، لفزع منه الآباء ولاحتضنت الأُمهات أطفالهن حمايةً لهم ، ولأعربْن فى صراحة عن سخطهن واشمئزازهن من هذا المقترح البربريّ ، ولزجّ الناس بمقدمه فى مستشفى العقول .

لقد تحرّر الإنسان من كثير من أعمال الوحشية التى كان يمارسها فى طور الهمجية ، وتحمل فى سبيل إنجاز ذلك مقاومة عنيدة . وإن تاريخ البشرية لحافل بأعمال بطولة قام بها رجال ونِساء عمِلوا لخير البشرية بتحطيم التقاليد البالية .

إننى ، على حسب تعبير توماس پين ، « لا أوقّر الأخطاء العتيقة ولا أعجَب بالأكاذيب القديمة » — ولهذا فإنى أستهجن

الختان ولا أرى فيه إلا مداومة على حماقاتٍ مردُّها إلى جهل الناس البُدائيين وتعلُّقِهم بالوساوس والأوهام .

وإنى لأُهيب بالذين يَنْشُدون صلاح الجنس البشرىّ ويؤمنون بوجوب حماية الأطفال من القسوة الهمجية والبتر البشع ، أُهيب بهم من صميم قلبى أن : أقلعوا عن الختان باسم الإنسانية .





الخاتن يجرى جراحة الختان

الآلات التى يجرون بها جراحة الختان



تظل المرأة ، بعد ماتضع وليدها ، بضعة أسابيع وهى فى حالة «تابو»
ترى هنا قريباتها يناولنها طعامها محاذرات أن يلمسنها
حتى لا يلحقهن منها نجس،



حفل الختان·



الثمن ١٥٠ مليما